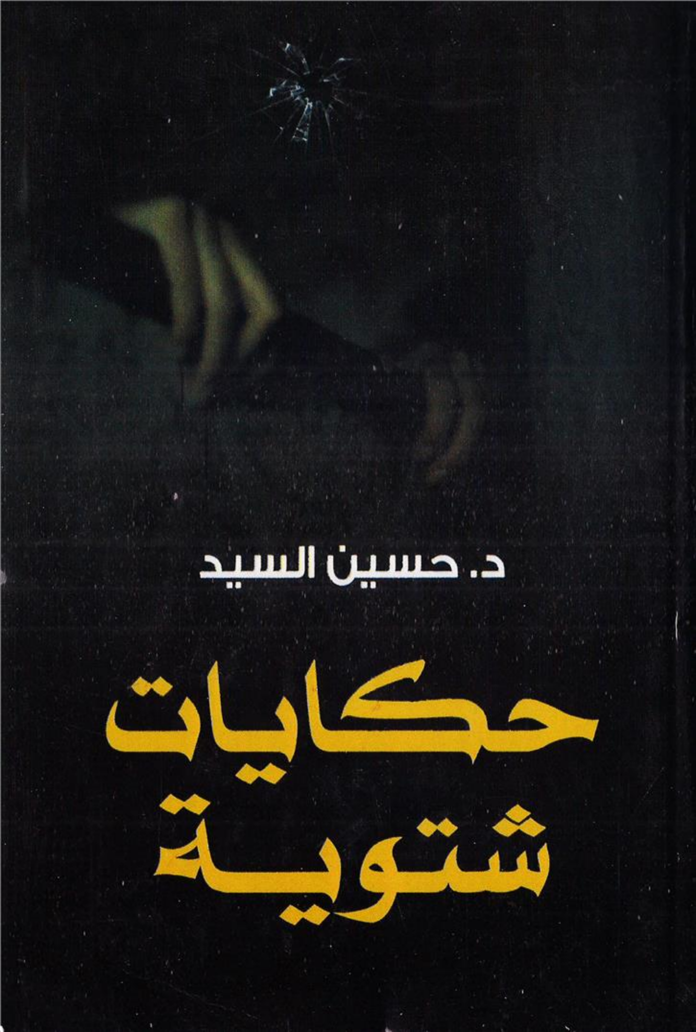
د. حسين السيد
حكايات
شتوية

د. حسين السيد

حكايات شتوية

رواية

للنشر
والتوزيع

إهداء

إلى تلك المرأة البسيطة التي منحتني كل شيء

إلى أمي

المرآة

ما تركته لي جدتي من متاع وإرث غريب كان عجيبًا ومخيفًا!

كانـت جـدتي تعمـل بالسّـحر، ورغـم أن هـذا الأمـر بغيـضٌ كريـهٌ إلا أنهـا لم تجتهـد في إخفائـه أو حتـى خالجهـا الخجـل يومًـا منـه.

كان هنـاك ذلـك القنـاع البدائـي المليء بالخطـوط الزرقـاء الطوليـة والبصـمات الدمويـة الغريبـة، وفجـوتي العينـين المجوفتـين في أعـلاه كالمغـارات المظلمـة الغامضـة. زعمـت جـدتي أنـه قنـاع يتيـح لهـا الاتصـال بالعـالم الآخـر واسـتحضار الأرواح الفانيـة القديمـة لأنـاس غـادروا الحيـاة مـن عقـود وقـرون، لكـن سِرّه الحقيقـي كان شـنيعًا.

وجـدت بـين متاعهـا بلـورة سـحرية قرمزيـة اللـون سرعـان مـا تـضيء بضـوءٍ فـيروزيٍّ عجيـبٍ إذا اقتربـت منهـا أنامـل جـدتي، كـما كان هنـاك الكثـير مـن التماثيـل البدائيـة الوثنيـة المخيفـة التـي تُشـبه أصنـام الجاهليـة، أضِـف إلى هـذا العديـد مـن المخطوطـات القديمـة ذات الأوراق المصفـرة والمكتوبـة بالسريانيـة كـما أعتقـد، والتـي لا أدري كيـف كانـت جـدتي تقرأهـا.

وجـدتُ في أغراضهـا كذلـك الكثـير مـن الأغـراض الشـيطانية مثـل الأحجبـة المطويـة، وتـراب الموتـى، وشـحوم المشـنوقين وأجنـة لم يكتمـل نموهـا، وعطـور وزيـوت كريهـة الرائحـة.

أمـا أشنع مـا تركتـه فكان تلك اليـد المقطوعـة من الرسـغ والتي حنطتهـا وكانـت تطلـق عليهـا يـد المجـد،

ماتـت جـدتي وقـد خلَّفَـت مـن ورائهـا إرثًـا مـن العـداء والـدم، وشياطين من الإنس والجن يسعون خلفـي ويبغي أغلبهـم القضاء عليَّ.

ومـن بـين أغراضهـا كانـت تلـك المرآة العتيقـة، ذات الإطار الفضي المتسـخ الحـواف والممتلـئ عـن آخـره بنقـوشٍ ورمـوزٍ وأسـهمَ وخطـوط تبـدو كالطلاسـم. كانـت مـرآة عجيبـة بشـكلها البيضـاوي الـذي لم أعتَدْه في المرايـا وسـطحها المنطفـئ الـذي لا يحمـل أي انعـكاسٍ لمـا حولهـا.

الغريـب أن هـذا ليـس حالهـا عـلى الـدوام. أحيانًـا تعـود لعملهـا الأزليِّ فيصـير سـطحها لامعًـا برَّاقًـا، لتعكـس صـورة أي شيء أمامهـا، حيـث أرى فيهـا انعـكاس وجهـي وهـو ينظـر إليَّ ويتبعنـي في كل مـا أقـوم بـه مـن حـركات. لكـن المخيـف هـي تلـك المـرات النـادرة التـي أرى فيهـا داخِـلَ المـرآةِ وجوهًـا أخـرى عجيبـةً لا أعلـم مـن يكـون أصحابهـا وهـي تنظـر لي مـن خلـف المـرآة، وتَرمُقنـي في دهشـةٍ وكأنهـا تتعجـب مـن وجـودي.

في المـرة الأولى التـي حـدث فيهـا هـذا، أصابنـي الهلـع كالمـوت، وهرعـت مـن أمامهـا نحـو حجـرتي وقلبـي ينتفـض بـلا توقـف، وقـد أزمعـت ألا أنظـر إليهـا ثانيـة. إن حيـاتي هادئـة الآن كـما لم أعهدهـا منـذ زمـن بعيـد، وقـد ماتـت جـدتي، وانتهـى للأبـد عـبءُ العنايـة بهـا في

مرضها الغريب الذي لازمها في عامها الأخير، حيث واجهت الكثير من الأفعال الشيطانية التي حدثت في مرضها ووقت موتها.

لأبتعد عن كل أغراضها اللعينة وأتجاهل حجرتها وكل شيء ملعون فيها.

لكن الفضول حيوان لحوح لا يمل. ولهذا وبعد أيامٍ من تساؤلات بلا إجابات ورغبة حمقاء في معرفة حقيقة تلك الوجوه التي ترمقني من خلف المرآة، عدت للحجرة ثانية!

أشعلت الضوء وتفقدت الفراش العتيق الذي لم أقربه منذ وفاة جدتي، ونظرت بحذر إلى الأغراض العجيبة الملقاة بإهمال في كلِّ مكانٍ، قبل أن يزحف بصري نحو المرآة.

كانت قابعة في مكانها ووجهها اللامع لا يواجهني. ترددت للحظة قبل أن أسير نحوها، ثم درت حولها حتى صرت في مواجهتها.

في البداية ظل سطحها معتمًا لا يعكس شيئًا، لكن وبعدَ دقائقَ من الترقب والانتظار أمامها، عادت الحياة لها، وكالسحر تلاشت العتمة وجاء البريق العجيب، حاملًا معه الوجوه نفسها التي لا أعلم من يكون أصحابها، ولم أقدر على تمييز أي زمن ينتمون من ملابسهم.

رحت أرمق وجوههم بعينين مرتجفتين. كانوا ثلاثة وجوه لرجال ثلاث بالغين. أولهم كان أصلع الرأس تمامًا، بوجه ممتلئ وعينين ضيقتين كالصينيين، والآخران قد احتفظا بشعر رأسيهما، وإن اشتعل الرأس شيبًا في أحدِهما فصارَ أبيضَ كالثلج رغم أن وجهه لا يحمل عُمرًا يتخطى الأربعين عامًا حتمًا. والآخر ما زال شعر رأسه يحتفظ بسوادِه وإن ميزه عينان حادتان نافذتان،

وفـم متقلـص بشـدة تحاوطـه الكثير مـن التجاعيـد، ووجـه رغـم وسـامته يشـع بالـشر.

حاولـت أن أسـتحضر بعـض السـلام والطمأنينـة لنفسي بتِـلاوة آيـة الكـرسي وتكرارهـا، ورفعـت صـوتي لـتردد الآيـات الكريمـة في جنبـات الحجـرة:

اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

انتظـرت أن تختفـي الوجـوه لـو كانـت تنتمـي لشـياطين مـا، لكنهـا ظلـت عـلى حالهـا وهـي ترمقنـي في هـدوء وصـبر دون أن يبـدو عليهـا أي اضطـراب أو قلـق. أدركـت أنهـم ليسـوا شـياطين طالمـا لم يفزعهـم القـرآن. اقتربـت بوجهـي مـن سـطح المـرآة، لتتسـع عينـاي في ذهـول، حـين تتحـرك رؤوسـهم للمـرة الأولى، فيتبادلـون النظـر إلى بعضهـم البعـض بشيء مـن العجـب.

إنهـم يروننـي إذًا، وإلا لمـاذا بـدت تلـك الدهشـة عـلى خلجاتهـم حـين اقتربـت بوجهـي مـن المـرآة. كان هـذا كافيًـا هـذه المـرة وقلبـي ينبـض بقـوة وأنفـاسي تتلاحـق كأنـما أعـدو في سـباق طويـل.

وفي اليـوم التـالي، فشـلت عـن إبعـاد تلـك المـرآة عـن عقـلي وتفكـيري، فلـم أذق طعـم النـوم ولـو للحظـة، ووجـدت نفسي أعـود إليهـا ثانيـةً. كان الوقـت ظُهـرًا حينهـا وكانـت السـماء خـارج البيـت تمطـر منـذ الصبـاح دون أن يلـوح أنهـا تنـوي التوقـف عـن هـذا قريبًـا.

لا أدري من أين أتت تلك القشعريرة التي هزتني بقوة، وهل كانت بسبب تلك البرودة القارسة، أم أنها بفعل الترقب والإثارة؟

أشعلتُ ضوء حجرة جدتي وتجاهلت الأغراض الأخرى وتقدمت نحو المرآة في إصرار، وأنا أتساءل، هل ما زالت الوجوه الثلاثة على حالها بانتظاري؟ وهل يشعرون بالإثارة مما يحدث كما أشعر، أم أنهم مجرد صورة عجيبة تعكسها المرآة؟!

هذه المرة كان السطح برَّاقًا لامعًا وعكسَ ملامحي على الفور. تفقدت ما على سطحها من صورٍ؛ فلم ترَ عيناي غيرَ جوانب الحجرة المنعكسة في المرآة.

كانت مرآة تتصنع البراءة وتنكر الغرابة!

لم أشعر باليأس، وقبعت أمامها في صبرٍ، بانتظار أن تمل لعبة البراءة هذه وتأتيني بالرجال الثلاثة الذين رأيتهم من قبل.

دوى في أذني صفير الريح المثقلة بالأمطار وهي تضرب شباك الحجرة بقسوة. وازداد الطقس برودة، ولم أدرِ كم مضى من الزمن قبل أن يأتي التحول. انتبهت إليها وقد تعكر سطحها بغتة، ثم ظهر الرجال الثلاثة. كانوا يرمقونني بلا مبالاة وكأنما لا يدهشهم وجودي.

انتقلت عيناي بين وجوههم وتجمدت أعينهم على وجهي كأنما تبغي اختراقه، ثم قفزت إلى عقلي فكرة ما. رفعت حاجبي الأيمن لهم، فضاقت عينا الرجل الأصلع ذي الوجه الصيني بينما ظل الآخران في لا مبالاتهما.

زحفت الإثارة نحو قلبي ثانيةً فحركت سبابتي نحوهم مُشيرًا لهم، فهز الرجل الحاد الملامح رأسه ببطء، كأنما لا يروقه ما أقومُ به.

فسحبت يدي على الفور، وبالكاد تمالكت نفسي، وقد كدت أن أتقدَّم له باعتذار سخيف.

في الواقع كنت أشعر بالفزع من عينيٍّ هذا الرجل اللتين يتواثب الشر منهما. وبينما يزداد توجسي وجدت نفسي أقول بصوت مهتز مشبع بالتوتر:

- مَن أنتم؟

هنا تعكر سطح المرآة ثانية وغمرها ضبابٌ رماديٌّ واختفى الثلاثة، وكان آخر ما اختفى فيها وجه الرجل المخيف الغاضب.

غادرت الغرفة بعد حينٍ، وقد مللت النظر إلى سطحها الذي صار معتمًا هذه المرة، وفي الخارج استقبلني الظلام المتسرِّب من خلف نافذة الصالة الزجاجية، وعاد الذهول ليغمرني، كيف استحال النهار الذي كان هناك منذ أقل من ساعة إلى هذا الليل المظلم، نظرت إلى الشوارع المبتلة بالوحل والمياه، والتي هجرها المارة، وأفكِّر في شرود، كيف مضى كل هذا الوقت وأنا أحملق في المرآة دون أن أشعر؟

تذكرت كل الصلوات التي فاتتني، فتوضأت وصليت ببالٍ مشغولٍ وذهن غائب. أتناول بعض الشاي الساخن فلا يذهب البرد الذي أحسه، والتليفزيون الذي يعرض فيلمًا أجنبيًا - للجميلة أنجلينا جولي التي أعشقها- لا ينجح في إبعاد ما جرى من المرآة اليوم عن ذهني. أطفئ التليفزيون وأشغل الراديو، ولا أنتبه لصوت عبد الحليم الذي كان يشدو حينها.

المرآة اللعينة نجحت بالفعل في غزو عقلي والسيطرة على

ذهني وأسر تفكيري. تتوالى عشرات الأسئلة على رأسي بلا أمل في إجابات تروي أرض الفضول الظمأى للمعرفة. مَن هؤلاء، وأين يكونون، وهل يشعرون بي، وهل يحملون شرًّا من أجلي؟!!

وهل.. وهل..؟

ويكاد عقلي أن يتفجر من التفكير.

النوم لا يحمل لي غير الأرق والسهاد، والشارع المبتل المظلم يمنعني من النزول إليه، محذِّرًا إياي من كارثة لو فعلت، وخاصة وقد راحت رياح الشتاء المشبعة بالصقيع ترتع في الطرقات بلا رادع.

وأغادر الغرفة يائسًا من نوم لن يأتي، لأعيد إشعال التليفزيون للمرة العاشرة في هذه الليلة الطويلة التي تأبى أن تنتهي. أمُرُّ على القنوات المختلفة دون أن تنجح إحداها في إيقافي حتى تنتهي القنوات الألف التي أتصفحها لأطفئه ثانية.

وحين أعود لحجرتي ثانيةً، أرى المرآة هناك معلَّقةً من إطارها الفضي على الحائط في مواجهة فراشي تمامًا، كأنما ترغب في لفت انتباهي والتيقن من أني سأنتبه لها؟! بالطبع كان من المستحيل ألا ألحظها.

لم أكن أنا بلا شكٍّ من جلَبَها للحجرة، ولم تكن الأشباح التي لا أؤمن بوجودها هي من فعل بالفعل، فكيف أتت المرآة إلى هنا؟!!

وكان الثلاثة بداخلها ككل مرة، يلتفون هذه المرة حول طاولة خشبية ويلعبون الورق كأنما يستمتعون بوقتهم، ومن المرآة انبعثت موسيقى تركية قديمة من جرامافون عتيق لتضفي على المشهد رعبًا لا يُوصف.

أتأملهم وأنتظر أن ينتبهوا إليَّ فلا يفعلون. أُحرِّك يدي نحوهم

ثـم ذراعـي، وأحـاول أن أحدِّثهـم دون أن يعـيروني انتباهـا، كأنـما لا يشـعرون بي.

أيكونـونَ في عـالَمٍ آخر لا أعلمـه؟ وهـل تـؤدي تلـك المرآة الغريبـة لهـذا العالم؟

إنها فكرة تصلح لقصص الخيال والرعب.

وبالرغـم مـن عـدم منطقيتهـا، إلا أننـي مـددت أناملي نحـو سـطح المـرآة لأتحسَّسـها متوقعًـا أن أغـوص بداخلهـا، لكـن كفّـي لامسَ السـطح البـارد للزجـاج دون أن يحـدث شيء. هـل كنـت أتوقـع أن تخـترق أناملي المـرآة كـما يحـدث في الحكايـات؟

يبدو أنني أفقد عقلي.

أشعر بالإعياء، وأفكر في أن أعيد المرآة لحجرة جدتي ثانيـة. لكِـنَّ خوفًـا مبهـمًا منعني، وفكـرت في تغطيـة سـطحها بملاءةٍ مـا، وأنـا لا أتخيل أن أنـام عـلى فـراشي، وهـؤلاء مـا زالـوا في عالمهـم الغامـض يراقبوننـي.

قمـت بتغطيتهـا ثـم رقـدت في الفـراش ووجهـي ينظـر نحوهـا، والهواجـس لا تفـارق مخيلتـي، وأنـا أتوقـع أن يخـرج منهـا فجـأة مـا يخيفني.

الهـواء البـارد الـذي اسـتحال عاصفـة ظـل يـضرب النافـذة، والوقـت الثقيـل يأبـى أن يمـضي وعينـاي ترفضـان الاستسـلام للنـوم، حتـى يصلنـي صـوت المـؤذن داعيًـا لصـلاة الفجـر. وحـين ينبلـج الصبـاح يـأتي حامـلًا عـلى كفيـه النـوم لأجفـاني، فأنـام.

وحين أفتـح عينـيَّ أجـد الثلاثـة يرمقـوني بثبـاتٍ مـن خلـف المـرآة. تنتقـل عينـاي بفـزعٍ نحـو الأرض حيـث قبعـت المـلاءة التـي غطيـت بهـا المـرآة بالأمـس. أرفـع رأسي لأرى الرجـل المخيـف حـاد النظـرات

وهـو يهـز رأسـه ببـطء، وكذلـك سـبابته، كأنـما يأمـرني ألا أكـرر مـا فعلتُـه. أنتفـض مـن الفـراش، وألهـث كجـرو يعـدو، وأحتـاج لبعـض الوقـت قبـل أعـود قـادرًا عـلى الحديـث ثانيـة.

«ماذا تريد مني؟.»

أقولها بصوتٍ مختنقٍ، فيهز الرجل القاسي رأسـه لأسـفل، ويبتسم ابتسـامة سـاخرة ولا يـرد. لم يكـن وحـده مـن فعـل هـذا في الواقـع، بـل ابتسـم الثلاثـة نفـس الابتسـامة الشريـرة التـي لم أشـعر بالراحـة لهـا.

أهـز رأسي لأتأكـد أننـي لا أحلـم، وأن مـا يحـدث ليـس أوهامًا أتخيلهـا. لكـن الأمـر يبقـى عـلى حالـه، ثـم تتلاشـى ابتسـامة الجميـع ويعـودون ثانيـةً ليرمقـوني بنظراتهـم النافـذة الحـادة التـي تخترقنـي.

أغـادر المـكان وأخطـو نحـو الحـمّام لأُفـرغ مثانتـي، ثـم أعـود لحجـرتي محـاوِلًا تجاهُـل المـرآة وعقـلي المشـوش يعجـز عـن التفكـير في حـلٍّ مـا، لكـنْ عينـاي تتسـللان نحـو المـرآة رغـمًا عنـي لأكتشـف أن الأمـر قـد اختلـف كثـيرًا هـذه المـرة.

لم يكـن الثلاثـة كالسـابق في قلـب المـرآة، بـل كان هنـاك حديقـة غنَّـاء يرتفـع خلفهـا قـصر منيـف، والرجـل المخيـف ذو النظـرات المرعبـة يعـدو عـلى العشـب وهـو يرتـدي ملابـس رياضيـة. أراقبـه وهـو يعـدو لبعـض الوقـت قبـل أن يتوقـف وقـد اعتـصر صـدره بكفـه، وأغلـق عينيـه في ألمٍ قبـل أن يسـقط. وبعـد لحظـات هـرع الكثـيرون مـن كل مـكان نحـوه لنجدتـه، لكنـه ظـل يتـألم ويـده لا تغـادر صـدره إلى أن همـدت حركتـه بغتـة، ثـم ارتفـع العويـل والـصراخ مـن حولـه. هـل هـي نوبـةٌ قلبيـة أودت بـه؟ بـدا الأمـر كذلـك.

هنا عادت المرآة لحالها، وتعكَّرَ سطحها ثانية.

أفكر فيما رأيته ولا أدري ما الذي تصبو إليه تلك المرآة، ولماذا تريني ما حدثَ. يرن الهاتف فأرد على ريم. زميلتي بالكلية وحبيبتي وخطيبتي كما آمل أن يحدث. تشكو بدلالٍ أنني صرت أتجاهلها، وأجيبها بإرهاق لا حد له أنني مجهد. تسألني بخوف حقيقي إن كنت مريضًا، فأجيبها بلا لباقة وأنا أغلق الهاتف في وجهها دون أن أجيب سؤالها، أني سأعاود الاتصال بها لاحقًا.

لا أدري لماذا شعرت بالضيق من اتصالها هذا، ولماذا نَفرتُ من حديثها هكذا؟ وأنا الذي طالما تمنى قبل شهور مثل هذا الاتصال والاهتمام.

أصلّي وأتناول بعض الطعام، ثم يدفعني هاتف غامض في رأسي للعودة للمرآة ثانية. أرمقها فأجد الثلاثة بانتظاري في وضعهم القديم يرمقونني بثباتٍ ونظرات نافذة تخترق أعماقي، فأحملق أنا الآخر في وجوههم بثباتٍ مماثلٍ.

لا ألتفت للوقت، وكما حدثَ بالأمس أجد الليل وقد هبط فجأة دون أن أنتبه، وأدرك أنني قد مكثت هكذا لساعات طويلة أمام المرآة أرقبهم ويرقبوني. وبينما تتقلص خلجاتي بدهشة لما جرى، ترتسم على وجوهم ابتسامة ساخرة قبل أن تخفيهم المرآة ثانية، وتعود مجرد مرآة عادية بريئة سطحها معتم.

وفي اليوم التالي أرى الرجل ذا العينين الضيقتين والرأس الأصلع والملامح التي تشبه الصينين في بيت غريب. كان يتشاجر مع امرأة بعينين ضيقتين تشبهه كثيرًا، ثم وجدتها تشير بكفها إلى رأسه

الخالي من الشعر بسخرية فيصفعها، تبتعد عنه غاضبة، فيتجه لمرآة صغيرة على طاولة بجواره. يلتقطها وينظر خلالها إلى رأسه بحسرة ويتحسس بباطن كفه رأسه الأملس ثم يبكي.

وتتعكر المرآة مرة أخرى، لأرى هذه المرة الرجل الثالث ذا الشعر الأبيض كالثلج، وأدرك على الفور لماذا لم تعلق نظراته بعقلي، ولماذا لم ألتفت إليه من قبل كزميليه. لقد كان أعمى كما أظهرَتْه المرآة، يتقدمه ويقوده كلب صغير مربوط من عنقه بحبل يقبض عليه بكفه. عيونه الميتة قبلًا لم تنجح في لفت انتباهي ولم تألُ المرآة جهدًا في نقل معاناته، في عالم قاسٍ لا يرحم الأصحاء، فما بالنا بالمعاقين؟!

وأعتزل العالم كله، وتصير المرآة عالمي. أستيقظ في الصباح كل يوم، لأمكث أمامها طوال اليوم دون أن أشعر بالوقت. ومن حين لآخر كنت أهبط إلى لشارع لشراء بعض الطعام قبل أن أعود إليها متعجلًا، كي لا يفوتني منها لحظة واحدة.

حينها أهملت دراستي ولم أعد أذهب للجامعة.

وتتصل ريم بي ألف مرة كل يوم ولا أهتم بإجابتها. يحاول خالد صديقي أن يعلم لماذا لم أعد أرتاد المقهى، فيتصل بي هو الآخر كثيرًا فلا أجيبه. وحين يئسَ من ردي راح يرسل إلى هاتفي رسائل كثيرة تلح عليَّ في الرد.

وتزداد خطواتي ثقلًا ويزداد شعوري بالإجهاد كل يوم. صرت عاجزًا على الصعود لشقتي في الطابق الثالث دون أن ألهث طويلًا. صارت الرؤة أكثر صعوبة حتى صرت أصطدم أحيانًا بالجدران دون أن أراها. لكنني رغم هذا لم أفارق المرآة.

أرى الرجل حاد النظرات وقد صار أكثر قوة ولم يعد يعاني من نوباته القلبية وهو يمارس رياضته. ويعود الرجل الصيني إلى سعادته وهو يتحسس الشعر الخفيف الذي عاد مرة أخرى لينبت في رأسه. وتخف معاناة الرجل ذي الشعر الثلجي وقد استرد بعض بصره فلم يعد بحاجة لآن يقوده كلبه.

وتصرخ ريم حين تراني وقد أتت إلى منزلي لترى لماذا ابتعدت عنها. أشعر أنها لم تعرفني في البداية، وأعلم أن بصري الذي صار ضعيفًا لم يتبين ملاحتها التي ذهبت بعقلي من قبل.

ثم تهتف في وجهي وتسألني في جنونٍ وغير تصديق:

- « كيف صرت هكذا؟ أنت مريض بلا شك، لماذا لم تذهب للطبيب؟ »

ولا أفهم ما تقصده. أنا ما زلت أنا، ولا أشعر أبدًا رغم كل هذا بالمرض.

لا أدري بماذا أجبتها، ولماذا غادرت المكان وهي تعدو من أمامي، كأنها تفر من الجحيم، باكية منتحبة. وأعود للمرآة لأرى الأصدقاء بانتظاري. يبتسمون جميعًا تلك الابتسامة الساخرة، ونتبادل بعدها النظرات النافذة التي لا بُدَّ أنها تنومني بطريقة ما فلا أشعر بالوقت.

وهالتني مرآة الحمّام حين نظرت إلى وجهي فيها ذات صباح - للمرة الأولى منذ زمن بعيد - بما تعكسه. كنت شخصًا آخرَ لا أعرفه لكنه يحمل بعض ملامحي. أرى رأسًا يكاد أن يخلو من الشعر. أرى عيونًا باردةً في طريقها للعمى. أرى جسدًا هزيلًا وصدرًا يعلو ويهبط لاهثًا بلا توقف يشي بقلب مريض.

وأدرك في لحظة صفاء متأخرة ما أصير إليه.

إنهم يسلبونني ما يفتقدونه!!

لا أدري مَن هُم ولا كيف يسرقون شبابي وصحتي وأي سحر أسود ذلك الذي يستعينون به، لكنني أرى نتيجة عملهم المشئوم منحوتة في خلجاتي ونفسي.

وأفكر في الحل..

وكان الجواب سهلًا..

عليَّ أن أتخلص من المرآة!

لكنني لن أجازف بالتخلص منها في مكانٍ قد يجعل أحدًا آخرًا يعثر عليها. عليَّ أن أتخلص منها في مكان لا وسيلة فيه للعثور عليها ثانية.

أتجه إليها وأتجاهل قاطنيها ولا أعير تلويحهم ولا اعتراضهم اهتمامًا. أحاول أن أخلعها من مكانها بالحائط لكني أعجز.. لقد صرت واهنًا ضعيفًا بصورةٍ لم أتخيلها. وأرى النظرة الشامتة في عيون الثلاثة.

وأفكر ثانية.. وكان الحل في خالد.

اتصلت به ليأتيني متعجبًا من هيئتي. أتجاهل حيرته وأسأله أن يقسم بالله أن يقوم بما سأطلبه منه بلا أسئلة أو اعتراض. يرمقني صامتًا بحيرة لبرهة، وفي النهاية يرضخ لرغبتي، ويبتلع فضوله أمام إصراري وإعيائي. أطالبه أن يدفن المرآة في مقبرة ما دون أن يشعر به أو يراه أي أحدٍ.

أرى الذهول في وجهه لكني أذكّره بقسمه الذي أقسمه للتو، فيكف عن دهشته. يحمل المرآة التي أحكمت غطاءها ويرحل بها،

وفي اليوم التالي جاءني، وأخبرني أنه قد دفنها ليلًا في مقبرة مهجورة قديمة من مقابر اليهود بالبساتين.

أشكره وأذكره بوعده أن يحتفظ بالأمر سرًّا، وأعده أن أفسر له يومًا ما كل شيء.

وتبدأ الأمور في التحسن. أسترد بصري، ويتحسن مجهودي ويقل لهاثي، ثم يستطيل شعري ثانية ويعود ليملأ رأسي. وأدرك أنني أسترد ثانيةً ما خاولوا سلبَه منّي.

كما أعلم أنني لدهرٍ طويلٍ لن أقرب حجرة جدتي الراحلة وأشياءها الغريبة الرهيبة!

إن تركتَها ثقيلة للغاية. والفضول هو أسوأ ما أتصف به، ولهذا أعلم أنني سأعود للحجرة يومًا ما. لكن حتى يأتي ذلك اليوم سأحاول أن أصحِّح ما اقترفته من حماقات في الأيام السابقة من أخطاء..

أولها بالطبع أن أستعيد ريم.

ترى هل تغفر لي ما فعلته بها؟

لكن السؤال الذي لم أعرف إجابته هو:

هل انتهى الأمر حقًّا، أم هناك ما لا أعرفه؟

بالطبع لم يكن متاحٌ لي أن أعلم أن رجب الحاوي، ذلك البلطجي الذي يسكن المقابر ويختفي بداخلها من الشرطة، كان يراقب خالد وهو يدفن المرآة. انتظره بمكرٍ حتى ينتهي من عمله، وقد أيقن أنه لا بُدَّ يخفي شيئًا ذا قيمة، وحين غادر خالد المكان أسرع نحو القبر ونبشه ووجد المرآة القديمة، ورغم إحباطه مما وجده إلا أنه أدرك أنها قد تجلب له بعض المال لو باعها بإطارها الفضي هذا.

لكـن المـرآة كانـت عجيبـةً ومـا يـراه خلالهـا كان مثيـرًا للغايـة، حتى إنهـا خلبت لُبّـه فلـم يعـد يطيـق البعـد عنهـا. ثـم شاركته الأمـر زوجتـه قبـل أن يلحقهـما طفلاهمـا.

الآن يقبـع رباعيتهـم أمـامَ سـطحها طـوال الوقـت. وبداخـل المـرآة احتشـدت الكثيـر مـن الوجـوه. كانـوا أكثـر مـن إحصائهـم. وبينـما تفقـد عائلـة في كل لحظـة شيئًا مـن قوتهـا وصحتهـا يصيـر الأمـر أكثـر بهجـة بالمـرآة.

كان الكل في المرآة في انتظار التحرر من أسرها.

في الواقع لم يعد هناك وقتٌ طويلٌ قبل أن يحدث هذا.

***

القط الأسود

لم أحب يومًا ذلك القط الأسود، ولم أتقبل أبدًا أن يحيا معي في بيتٍ واحدٍ، وتحت سقفٍ واحدٍ.

كان قط جدتي الأثير وحيوانها المدلل الذي يلازمها طوال الوقت كظلها. قطها الذي حاولت يومًا ركله لسبب لا أتذكره الآن، فرأتني قبل أن أفعل، لتصرخ في وجهي كذئب مجنون، ثم عاقبتني بالحبس في حجرتي في الظلام ليومين كاملين دون طعامٍ أو ماء.

كان هذا القط سِرًّا آخرَ من أسرار جدتي التي لا تنتهي.. وكم كانت أسرارها لا حدَّ لها،

كثيرة ومخيفة!

كنت أكرهه لأسباب عدة: أولها أنني لا أهوى الحيوانات، لا أحبها ولا أقربها. في الحقيقة كنت أخافها جميعًا وأخشاها وأتجنبها ما استطعت.

كما كان ذلك القط أسود اللون كالحبر، وكانَ هذا كفيلٌ لأن أكرهه كالجحيم. فطالما كرهت اللون الأسود وما يعنيه لي من خوفٍ وليلٍ وظلامٍ طالما عوقبت به. ووحدة طالما عانيتها وسئمتها.

كانت حياتي مع جدتي صعبة لا تناسب أبدًا طفلًا صغيرًا أو صبيًّا مراهقًا أو حتى شابًا في مقتبل عمره. لم أظفر وأنا طفلٌ بصديقٍ واحدٍ، وقد كان الكُلُّ يعايرني بجدتي التي يرونها ساحرة شريرة، ويروني ابن الساحرة.

كنت صغيرًا، وكانت مطاردة أقراني تخنقني، وما ينعتوني به كان يوترني. أتشاجر مع أحدهم وقد راح يضايقني ويطاردني ويعايرني، لأدرك بعدها أن المعركة خاسرة لا محالة، وأنه لا حظَّ لابن الساحرة مع هؤلاء. فالكل حينها يتكالب عليَّ، والصفعات والركلات تأتيني وقتها من كل مكان، لتصيب كل جزءٍ من جسدي. ولو حاولت الهرب فهناك القذف بالحجارة والثمار التالفة.

كنت ابن الساحرة الشريرة، وطفل المدرسة المنبوذ المكروه، وكان انتهاك عزلتي ووحدتي ودمائي مباحًا للجميع دون خوفٍ ردعٍ، أو خشية من عقابٍ.

ما زلت أكره تلك الأيام المشئومة وذكرياتها المؤلمة. وحمل القط بعضًا من تلك الذكريات اللعينة!!

****

كنت أخشى ذلك القط الأسود منذ اليوم الأول لانتقالي للعيش في كنف جدتي. كان ضخمًا سمينًا حسن التغذية، رغم أني لا أذكر أنني رأيته يومًا يأكل أو يشرب. كما كان نادر المواء حتى تخيلته في البداية أخرسَ. لكنه بعدها أصدر غير مرة مواءً دحض ظني هذا.

وكانـت هنـاك عينـاه. لم أحبهـما ولم أتحمـل يومًـا النظـر إليهـما. لم أعلـم يومًـا مـا هـو لونهـما الحقيقـي. أهـو الأصفـر الفسـفوري. أم تـراه الأخـضر الداكـن، أم أنـه الأزرق السـماوي. أم هـو الأحمـر النـاري. إنني لا أعرف!!

فـكل تلـك الألـوان رأيتهـا تتبـدل في عينـي ذلـك القـط الأسـود اللعـين طـوال الوقـت.

لازم جـدتي في حياتهـا كظلهـا. ينـام عـلى فراشـها في المسـاء، ويسـتكين بـين قدميهـا هادئـًا وهـي تعـد تعويـذة مـا أو تعالـج ممسوسًـا، أو تمنـح أحـد زبائنهـا حجابـًا أو رِقًّـا سـحريًا. وفي أحيـانٍ أخـرى نـادرة كانـت تطالبنـي بمغـادرة حجرتهـا ومـن خلـف البـاب يأتينـي مـواء القـط ممطوطـًا طويـلًا كبكـاءِ طفـلٍ بائـسٍ، كأنـما يتـألم أو كأنـما يشـاركها في طقوسـها الرهيبـة.

مـا الـذي كان يحـدث في تلـك المـرات النـادرة ولمـاذا يصـدر القـط أصواتـه تلـك التـي تـشي بمعاناتـه؟ كان ذلـك سرًّا مـن الأسـرار التـي لم أعـرِفْ أبـدًا كُنْهَهَـا.

يقولـون إن السـحرة الحقيقيـين يلازمهـم دومًـا قِـطٌّ أسـود. وقـد قـرأت هـذا غـير مـرة. يقولـون إنـه قـد يكـون تجسُّـدًا لأحـد الجـان أو الأرواح الشـقية الشريـرة أو الشـياطين الملعونـة. يقولـون إن وجـوده لازمٌ لاتصـال السـحرة بعوالمهـم السـفلية، وأن تلـك القطـط السـوداء رُسـل أولئـك السـحرة لعـالم الجـان والشـياطين. قـرأت كل هـذا وأكثـر وكـم شـعرت بالفـزع حينهـا. كنـت في مراهقتـي في ذلـك الوقـت، ولـو امتلكـت أمـري لمـا مكثـتِ بالـدار حينهـا لحظـة واحـدة.

كنت طوال الوقت أتساءل: هل يكون ذلك القط اللعين الذي أكرهه كالجحيم شيطانيًا متنكرًا أو أن هناك روحًا بائسةً مسجونة في بدنه!!

رحت حينها أُعامِله بحذرٍ، وأتحاشى أن أجتمع به في البيت منفردًا. العجيب أنه بدا وكأنه أدرك خشيتي هذه منه فراح يستمتع بزيادة توجسي منه. أنظر إليه فأرى في عِينيه نظرة تحد ساخرة. ولولا خشيتي أن يتهمني أحدٌ بالجنون لأقسمت إن ابتسامة ساخرة ظافرة ترتسم على شفتيه وقتها. شعرت وكأنه يحدثني حديثًا خفيًا قائلًا:

- «نعم. لست مخطئًا فيما تظنه. أنا بالفعل شيطان. هل تخشى هذا؟»

ثم تشعر جدتي بمخاوفي، فتلوّك طعامها ببقايا أسنان مهشمة نخرة، وتقول لي محذرة:

- «إياك والقط. دعه في شأنه ولا تقربه، أو تفكر في إيذائه»

ولا أدري مَن أخبرها أنني قد أبغي أمرًا كهذا. إنني أفر منه دومًا، كأنه الوباء. لو شئت الإنصاف لطلبت جدتي القط أن يدعني وشأني.

فكرت بعدها طويلًا في التخلص منه، ورسمت في عقلي عشرات الخطط لتنفيذها. وكانت إحدى هذه الخُطط ممكنة. ففي مساء الخميس من كل أسبوع، تفارق جدتي المنزل، واعتادت أن تأمرني ألا أبرحه حينها، حيث تقضي ليلتها في مكانٍ ما، ولا تعود إلا في الصباح. لم أعلم أبدًا أين تذهب ولم أرَ يومًا محتويات الأجولة التي تعود بها في كل مرة. خمنت أنها أغراض تحتاجها لممارستها السحرية القميئة، لكنني لم أجتسر على سؤالها عنها.

المهم أنني فكرت في حمل القط قسرًا، وإلقائه في مكانٍ بعيدٍ حيث لا يمكنه بعدها العودة للدار ثانية. يمكنني بعدها أن أتظاهر البراءة أمام جدتي، بل ويمكنني أن أقسم لها إنني لا أعلم مكانه. سأخبرها أنه ربما فارقَ الدار برغبته، وربما جذبته قطة أخرى ليهرب معها.

أزمعت التنفيذ في الأسبوع التالي. جلبت حبلًا لأقيده به، وجوالًا صوفيًا لأضعه به، وقفازًا جلديًا كي لا يخدشني بمخالبه وأنيابه لو فكر في المقاومة. غادرت جدتي المنزل وهي ترمقني بنظرة تعريني، وانفردت بالقط. جلبت الأغراض وارتديت القفاز وتقدمت نحوه.

رمقني بنظرة عجيبة ورفع ذيله نحوي كأنما يحذرني من مواصلة محاولتي الخرقاء. وحين أيقن إصراري على المواصلة بخَّ في وجهي وأصدر مواءً غامضًا مخيفًا قبل أن تتلون مقلتيه باللون الأحمرِ الدموي. بد كالشياطين في تلك اللحظة. ورغمًا عني سقطَ الحبل من كفي وارتجفت قدماي وراح جسدي ينتفض.

هربت من أمامه، وأحكمت إغلاق حجرتي التي لذت بها، ورحت على فراشي أرتعد وأرتعش، وظل القُطّ طوال الليل يطلق مواءه الرهيب مُعلنًا انتصاره. وفي اليوم التالي صرخت جدتي في وجهي فور أن عادت:

- «إياكَ أن تُكررها ثانية. تعلم عن ماذا أتحدث أيها الصبي الغبي، في المرة القادمة لن يرحمكَ»

لا أدري كيف علمت بما أنتويته، لكنني لم أكن بحاجة لهذا التحذير. بالفعل لن أفعلها ثانية!

ثـم ماتـت جـدتي بعـد تلـك الحادثـة بأعـوامٍ لكنهـا قبـل أن تمـوت لم تنسَ أن تحـذرني:

- حافِـظ عـلى القـط كعمـرِكَ. لا تتخلـص منـه، وإيـاك أن تؤذيـه. سـيصيبك شر لا قبـل لـك بـه لـو فعلـت. أتمنـى أن تـدرك هـذا»

وماتـت بعدهـا في صخـبٍ مفـزعٍ وبـل كـدت أن ألحقهـا في ذلـك الوقـت هلعًـا مـن الأهـوال التـي جـرت حينهـا. كان القـط حـاضرًا بقـوة في تلـك الأيـام الرهيبـة. وصـارت عينـاه حمراويـن متوهجتـين كاللهـب طـوال الوقـت، وهـو يُطلـق مـواءه الغريـب الحزيـن بـلا توقـف. ومـا إن فارقتهـا الحيـاة حتـى اختفـى مـن البيـت كلـه كأنـما فـارق المكـان مـع روحهـا.

لم اعبـأ بـه حينهـا وتشـاغلت بدفـن جـدتي. غـادرت البيـت ليومـين حيـث مكثـت في إحـدى قـرى سـوهاج حيـث مقابـر ومنشـأ عائلتـي، وحـين عُـدت رأيتـه بالمنـزل وأدركـت أي أيـام سـوداء تلـك القادمـة عـليَّ في البيـت. كان هنـاك قابـعٌ أمـام حجـرة جـدتي، دخلـت الشـقة فنظـر نحـوي بعينـين صفراويـن باردتـين بـلا مبـالاةٍ. ثـم تحـرك نحـو حجرتهـا.

كانـت هـذه هـي المـرة الأولى التـي نصـير فيهـا سـويًا بعـد تلـك الحادثـة القديمـة التـي حاولـت التخلـص فيهـا منـه. بـدا الأمـر مفزعًـا وبـدأ قلبـي يخفـق في عنـفٍ، وقـد عـادت كل مخـاوفي القديمـة منـه للاسـتيقاظ ثانيـة. تذكـرت حينهـا عينيـه الحمراويـن كعيـون الشـياطين وتذكـرت أفعالـه الغامضـة، التـي لا تمـت لعـالم الحيوانـات العجـماء بأدنـى صلـة، ثـم تذكـرت مـواءه الغامـض النـادر فشـعرت بالهلـع.

زحفـت نحـو حجـرتي وأغلقـت بابهـا خلفـي. رقـدت عـلى الفـراش مضطربًـا بينـما يأتينـي مـواءه الغامـض من خلـف البـاب المغلق،

فلا أجسر على مغادرة الحجرة لأرى ماذا يفعل؟ وتمضي ساعات الليل بطيئة حتى يأتي النوم.

وفي الحلم أراه، وقد استطالت أطرافه وتضخم رأسه وهو يقف أمامي على قائميه الخلفيين منتصبًا كالبشر. يخفق قلبي وأبغي الفرار من أمامه فلا أقدر. ثم تلوح على شفتيه ابتسامة ظافرة. ابتسامة أعلم أنني رأيتها من قبل.. وبصوتٍ عميقٍ راح يتحدث:

- لقد صرت لي أيها البشري. ماتت جدتك ولم يعد هناك من يحميك منّي.

ليحيط جسدي بعدها بأطرافه ويعتصرني بعنفٍ، فتظلم الدنيا في نظري وأهوي في ظلمات لا نهائية. أشعر في تلك اللحظة بالنهاية وأنني في طريقي لمغادرة هذا العالم، لكنني أستيقظ بغتة لأدرك أنني كنت أحلم.

أهب من الفراش لاهثًا في الظلام بقلب واجف. وبعد لحظات أُدرك أنني لست بمفردي في الحجرة. ففي الظلام راحت عينان مشتعلتان تتوهجان في الظلام جوار الفراش ترمقانني بثبات.

لقد كان القط رفيقي في الحجرة التي أحكمت إغلاقها قبل نومي.

فكيف دخلها إذًا؟

لا أدري كيف لم يتوقف قلبي حينها فزعًا، في الواقع لو متُّ حينها لما تعجبت..

في تلك الأيام رحت أقرأ كثيرًا عن القطط السوداء. أردت أن أفهم كنه هذا الشيء اللعين الذي يجمعني به البيت. تبدلت

طبيعته الكسول الذي طالما كان عليها، وصار يتبعني في كل مكان. أدخل البيت فأراه خلف الباب بانتظاري. أشاهد التلفاز فيقبع أسفل قدمي ساكنًا. أغلق باب حجرتي من خلفي وأتأكد من وجوده خارجها قبلها وأنام، ليوقظني هاتف خفي من نومي لأجده بالحجرة معي. لن أتحدث عن فزعي وهلعي حينها، لكن ما أعياني هو كيف يدخل الحجرة وهي مغلقة.

لو لم يكن شيطانًا رجيمًا فكيف يفعلها.

كان عليَّ الاهتمام به رغم كل شيء واعتدت تقديم الطعام إليه في الأيام الأولى التي تلت موت جدتي. كنت أضع أمامه إناء اللبن فأجده كما هو في اليوم التالي دون أن يمسسه. أُقدِّم الأسماك النيئة أو المشوية له فيرمقها بلا مبالاةٍ ثم يبتعد. كما لم أرَه يقرب الماء أبدًا. كنت أشعر بالجنون من كل هذا. كيف يعيش كائن حي دون طعام أو شراب إلا لو كان شبحًا أو شيطانًا.

في التراث الغربي ينظرون إلى القطط السوداء أنها ساحرات متنكرات. وفي القرون الوسطى لم يكن هناك من حظ لأي قط أسود في الحياة. فالكل يطارده وإذا سقط في أيدي مطارديه فالموت شنقًا أو حرقًا أو غرقًا هو مصيره الحتمي.

أما في تراثنا الشرقي فالقطط السوداء هي تجسيد للشياطين والجان. بل وأجاز بعض الغلاة من الفقهاء قتلها والتخلص منها. رغم أن القطط في السنة الشريفة طاهرة لا يلزم قربها تجديد الوضوء. وكان هناك أبو هريرة الصحابي المحب للقطط حتى سُمي بهذا الاسم.

بينما عبدَ الفراعنة القطط. وقد جعلوها أحد الآلهة وأطلقوا عليها «بست أو بستيت». بل وبالغوا في تقدسيها فجعلوا لها عاصمة تُعبَد بها.

واقتنت جدتي قطًا لعينًا أجهل سره، كما تركت لي ميراثًا ملعونًا من أغراضها التي حذرتني من التخلص منها.

وقرب الفجر في أحد الأيام أيقظتني قَرعات قوية على الباب. لأنهض متوترًا متسائلًا عن كنه صاحبها. وحين أفتح الباب أجده الجار المزعج موظف مديرية الصحة بالقاهرة عبد الحفيظ عوض والذي يقطن في البناية المجاورة لي. كان بملابسه الداخلية الغارقة في عرقه وبادرني بفظاظة:

– أسكِت قطك اللعين أو اقتله. أخرِجه من شرفتك اللعينة واحبسه داخل البيت كي يكف عن ضجيجه. نريد أن ننام يا هذا. نريد أن نرتاح. ألا تشعر بالعار وقطك يزعجنا هكذا»

وأنتبه في تلك اللحظة للمواء الممطوط القوي. أقترب من الشرفة فيبدو المواء جليًا. يمكنك أن تحسبه بكاءَ طفلٍ بائسٍ يتوجع أو هو عواء طفل تائه يبحث عن المأوى والدفء. أخرج إلى الشرفة فأجده يعتليها. أصرخ فيه أن يصمت فليفتت إليَّ برأسه لأرى العينين الناريتين مرة أخرى. ثم أنتبه إلى حشد القطط التي اجتمعت أسفل الشرفة في صفٍّ واحدٍ وقد رفعت رأسها نحو قطي في صمتٍ يحمل الكثير من الخشوع، كأتباع ديانة غامضة يصطفون حول كاهنهم الأعظم.

أشعر بالرعب وأتمتم في ضراعة كأنما أرجوه:

- أرجـوك كـف عـن هـذا. لقـد أزعجـت الجـيران ولا أريـد أن يتشاجروا معي أو يغضبوا.

لكنـه يرفـع رأسـه ثانيـةً نحـو الفضـاء المظلـم ويُطلـق مـواء آخـرَ طويـلًا ثـم يغـادر الشرفـة.

وفي الصبـاح التـالي علمـت أن جـاري عبـد الحفيـظ عـوض قـد أصابتـه أزمـة قلبيـة قُـرب الفجـر ذهبـت بحياتـه. قالـت زوجته أنـه كان بالمطبـخ حـين داهمتـه الأزمـة القلبيـة. وأنهـا سـمعته قبلهـا يتحـدث إلى شـخص مـا برعـب، وهـو يـردِّد أنـه لم يقصـد. كـما تجـزم أنهـا سـمعت مـواء قـط حينهـا. لكنهـا لم تجـد أيَّ أثـر للقـط حـين دخلـت للمطبـخ أو أي أثـر لذلـك الشـخص المزعـوم الـذي كان زوجهـا يحدثـه. وبعدهـا انتبهـت لجثـمان زوجهـا وقـد رأت الفـزع عـلى وجهـه.

رأيـت في وجـه القـط اعترافًـا غـير مكتـوب بـما جـرى. هـل قتلـه القـط لأنـه احتـج. تخيفنـي الإجابـة في الواقـع.

ويقول لي خالد صديقي ببساطة ونحن بالمقهى:

- تخلـص منـه تنتهـي متاعبـك وشـكواك. في النهايـة هـو مجـرد قـط وأنـت لا ترغـب في اقتنائـه.

أتمنـى لـو أفعـل مـا يطالبنـي بـه خالـد، لكننـي أعـود وأتذكـر تلـك المـرة الوحيـدة التـي حاولـت فيهـا التخلـص منـه وفشـلت، فـأدرك أننـي لـن أقـدر. أشـعر أن هـذا القـط لا ينتمـي لعالمنـا المـادي هـذا ولـن تفلـح أبـدًا محـاولاتي لإقصائـه عـن البيـت.

أرشـف الشـاي وأسـبح شـاردًا في تلـك القصـة الرهيبـة لــ «أدجـار ألـن بـو» عـن ذلـك القـط الأسـود بلوتـو. كان يشـبه قطـي هـذا وكأنهـما

نفس القط. ولقد شنقه صاحبه حينها بلا رحمة، فعاد من موته ليثأر. خيال مريع لن يحتمله قلبي لو حدث. ماذا لو نجحت في التخلص من ذلك القط اللعين وقتله، ثم وجدته أمامي ثانية. حتما سأموت فزعًا حينها أو أجن. لن أستطيع التخلص منه كما يقترح وليد.

أخبره بهذا فيهتف في وجهي:

- أنت جبان رعديد.. أيها الأحمق، هذا القط اللعين يتغذى على خوفك وهلعك منه.

- إنه ليس قطًا يا وليد. إنه شيء آخر. إنه حتى لا يقرب الطعام أبدًا..

- وما أدراك أنه لا يفعل. ربما يقتات على الفئران والحشرات والزواحف. إن منازلنا كلها قديمة متهاوية وتمتلئ عن آخرها بتلك الزواحف وغيرها.

- وماذا عن عينيه. لن تتخيل كيف تصير مخيفة حين تتحول للون الأحمر.

- كل القطط كذلك. إنها خدع بصرية لا أكثر.

كان مُصِرًّا على أنني واهمٌ أحمق. فأقول له بإذعان واستسلام:

- إذا ماذا تقترح.

- دعني أخلصك منه ما دمت تخشاه هكذا.

وأعود به للبيت. يتقدم من القط الرابض في الصالة بسكونٍ فلا يكترث به. يحمله بين ذراعيه فلا يحتج القط. يبتسم خالد بسخرية ويقول وهو يغادر البيت:

- هل رأيت أيها الجبان. إنه مجرد قط تافه كسول. سوف أذهب به للمقابر، لأدعه هناك

ويغادر البيت وأنا لا أصدق أنني تخلصت من القط بتلك السهولة.

وقُرب الفجر أنتبه لرنين هاتفي المحمول المُلِح. كان خالد الذي راحَ يصرخ بفزع:

- عليك اللعنة أنت وجدتك الشيطانة. تعال إليَّ حالًا وخُذ قطك اللعين. إنه شيطان.

هرعت إلى شقته، كان باب الشقة مواربًا غير مغلقٍ، ومواء قطي يتردد صداه من داخل الشقة فأدخل. أرى عينيه المتوهجتين كالحمم. فأتجمد في مكاني. يرمقني بثباتٍ لبعض الوقت قبل أن يتحرك نحو الخارج ويغادر المكان. أطرق باب حجرة خالد وأخبره أنني قد جئت، فيصرخ في الداخل:

- بل أنت القط اللعين. أنت تنتحل صوت صديقي. لأفتح الباب لكنني لن أفتح حتى تنصرف، لن أفتحه مهما حدث.

أشعر بفزعه وأقسم له إنني صديقه. يتردد قليلًا ثم يفتح الباب. يراني فيرمقني بشكٍ لبعض الوقت قبل أن يرتمي في حضني باكيًا. يخبرني كيف تحول القط إلى شيطان. كيف استطالت مخالبه وأطرافه. كيف انتصب على قائميه الخلفيين. وكيف هاجمه وراح يخدش وجهه محاولًا اقتناص عنقه. ويزداد نحيبه وفزعه وألحظ البلل في بنطاله فأدرك أنه قد بلَّلَ نفسه. كان يصرخ حينها:

- إنه شيطان.. إنه شيطان لعين، اذهب به من هنا وارحل حالًا.

كل هذا أعلمه جيدًا من قبل يا خالد. هذا ما كنت أخبرك به لكنك من رفض أن يصدق.

وأعود للبيت فأجده بانتظاري داخله. لم يعد مُهِمًّا أن أسأل كيف دخل البيت المغلق، فقد اعتدت منه هذا. تعود عيناه للونهما الأصفر الفسفوري ويختفي من أمامي داخل حجرة جدتي. يفارقني النوم وأنا أفكر أنني لن أظل طيلة حياتي أسير رفقة هذا القط اللعين. أشعر بالحنق على جدتي فألعنها رغمًا عني بصوتٍ مرتفعٍ.

ويتناهى إلى أذني أصوات تتردد في الخارج. أصوات بشرية مختلطة كأنما هناك من يتحدث في ردهة الشقة. أغادر حجرتي متوترًا لأرى ما الذي يحدث. كان القط متربعًا في الصالة وأمامه قط أسود آخر لا يختلف عنه في سواده الحالك وإن ميزت أنه أنثى. يرمقاني بعيون متشابهة تمامًا؛ فيرتجف قلبي، من أين أتى القط الآخر؟ بل وكيف يمكنني أن أحتمل قطين وقد كان قط واحد يصيبني بالجنون.

أشعر باليأس، وأرمقهما بعجز. أتمنى لو أركلهما خارج البيت، أو أهشم جمجمتهما على الحائط. تلوح ابتسامة مخيفة على وجهيهما ويزداد بريق عيونهما وكأنهما يدركان ما يجول في نفسي من قنوط وإحباط، وأعود لحجرتي ثانية، وأغلقها ثانية خلفي بإحكام.

وتعود الأصوات الآدمية خارج الحجرة لحديثها المبهم الغامض ثانية. وفي الظلام ينبعث من أسفل الباب المغلق بعض الضوء الأحمر، ممزوجًا بدخانٍ عجيبٍ. تزداد الأصوات صخبًا خارج الغرفة ويأسرني الفزع فأتقوقع حول نفسي بالفراش وأرتجف.

ويأتي النوم بعد حين. وفي الأحلام أجد جدتي الراحلة

بانتظاري، الظلام يكتنفها وهي تتكئ على عكازها الخشبي الذي ينتهي برأس قط، وعيناها تتوهجان كالنيران. وبالرغم من إدراكي أني أحلم إلا أنني أفشل في الخروج منه.

يتآكل لحم وجهها ويذوب، وتصير رأسها كالجمجمة وتمرح في فجوتي عينيها كرتان من اللهب، وتقول بفم عظمي خالٍ من الأسنان:

– هل افتقدت جدتك العزيزة يا صغيري؟ ها أنا قد عُدت لك، ألن ترحِّب بي يا ولد؟

يتردد صدى صوتها في الفراغ من حولنا وأتراجع أمامها. تتلاشى ملابسها ومن أسلفها يبرز هيكلها العظمي، وفي منتصف القفص الصدري ينبض قلبها بلا توقف. أشعر بأنفاسي المختنقة ومن أسفل قدميها العظميتين يظهر القط الأسود اللعين. عيناه ناريتان هو الآخر وعلى وجهه نفس الابتسامة الساخرة. وتُواصِل جدتي حديثها بصوت متحشرج كأنما يأتي من أعماق الجحيم:

– لقد حان وقت العودة يا صغيري. هيًّا استعد لاستقبالي.

وراحت تضحك وراح القط يضحك معها ورحت أصرخ. وابتلعهما الضباب وهي ما زالت تقول:

– انتظرني في اليوم الأربعين لموتي.. سوف أعود!!

وأهب من النوم فزِعًا. يعلو صدري ويهبط في رحلة البحث عن ذَرَّة هواء واحدة، ويحتشد العرق بجبهتي ومن خلف الباب تصلني الضحكات التي كانت تتردد في الحلم.

هل ما زالت أحلم؟

كلا.. إنـه حقيقـي.. هنـاك مـن يطلـق تلـك الضحـكات المريعـة بالخـارج، لكنتـي لـن أخـرج، أخشـى أن أخـرج فـأرى جـدتي التـي استحالت هيـكلًا عظميًـا تضحـك وأسـفل قدميهـا يشـاركها قطهـا الأسـود اللعـين الضحـك.

وتختفـي الضحـكات ويـأتي الصبـاح وأتذكـر مـا هـو اليـوم. اليـوم هـو الأربعـون عـلى مـوت جـدتي. أغـادر الغرفـة وتتلاعـب في رأسي عـشرات الأفـكار. أرى القـط الأسـود وهـو يرمقنـي بـلا مبـالاة، وقـد اختفـت القطـة الأخـرى فأتجاهلـه وأتجـه للمطبـخ.. أعـد القهـوة كـي أزيـح بعـض الصـداع عـن عقـلي ومـع كل رشـفة يـزول تشـوشي وأسـتعيد جـزءًا آخـرَ مـن ذاكـرتي. وأعـود لتذكـر حديـثٍ عجيـبٍ أخبرتنـي بـه يومًـا ولم أفهمـه.

قالـت لي إن السـحرة يعـودون ثانيـة بعد المـوت. وأن أرواح السـحرة ترعاهـا شـياطين الجحيـم وتعـد مـن أجلهـا الكيـان المـادي الـذي يحِلّـون فيـه بعـد موتهـم.

أذكـر تلـك المـرة التـي عاقبتنـي فيهـا جـدتي بشـدة عـلى خطـأ مـا فنظـرت لهـا بغِـلٍّ وأنـا أتمنـى أن تمـوت. لا أدري هـل خمنـت مـا أفكـر فيـه أم أنهـا تقـرأ أفـكاري كـم أظـن أحيانًـا لكنهـا ضحكـت ضحكتهـا الشريـرة السـاخرة وغمغمـت:

- تتمنـى مـوتي لكنـك لـن تسـعد بـه لـو حـدث لوقـتٍ طويـلٍ. أعـرف كيـف أعـود وقـد أعـددت جسـدي القـادم. سـوف أمكـث معـك للأبـد أيهـا الشـقي ولـن أفارقـك أبـدًا.

يقولـون إن أرواح السـحرة تسـكن القطـط، وأن السـحرة الأشرار يفضلـون القطـط السـوداء. هـل أعـدت جـدتي ذلـك القـط ليكـون وعـاء روحهـا حـين تعـود، أخشـى أن يكـون هـذا مـا يحـدث.

أرفـض الفكـرة تمامًـا وأشـعر أنهـا تتعـارض مـع معتقـداتي، لكـن مـا أدراني أنـا عـن الأرواح، ولا مـا يحـدث لهـا؟

أغـادر المنزل وعقـلي في سبيله للجنـون. أهيـم عـلى وجهـي حتـى يـزول النهـار فأعـود للبيـت. الظـلام في كل ركـن في البيـت وألحـظ الوهج الـذي ينعكـس في حجـرة جـدتي. أقـترب فـأرى القـط الأسـود قابعًـا بـين دخـان شـيطاني يغمـره. الهمسـات الشـيطانية تـتردد في الفـراغ وأصـوات أقـدام خفيـه يـتردد صداهـا حـولي وينبـض قلبـي هلعًـا بـلا توقـف.

وحـين يلـوح لي شـبح جـدتي وهـو يظهـر في فـراغ الحجـرة أصـاب بالجنـون. لـن أسـمح لهـا أن تعـود. لـن أحتمـل أن أحيـا مـع روحٍ ميتـةٍ وأن أظـل أسـيرها طـوال عمـري. وأندفـع بـلا تعقُّـلٍ نحـو القـط. أحملـه فيحـاول التملـص مـن بـين كفـي وهـو يخدشـها بأنيابـه ومخالبـه لكنـي لا أتركـه. وأهـرول نحـو النافـذة ومـن خلفـي تـتردد صرخـات جـدتي الفزعة.

ودون أن أشـعر بنفـسي ألقـي بالقـط مـن الشرفـة. يسـبح جسـده في الفـراغ للحظـات ويتقـوس ظهـره ويسـتعد للهبـوط الآمـن عـلى قوائمـه كـما تفعـل القطـط كلهـا. لكـن السـيارة المسرعـة في الشـارع لم تمنحـه تلـك الفرصـة واصطدمـت بـه قبـل أن يبلـغ الأرض.

ويشـق الفـراغ مـن خلفـي صرخـةٌ هائلـةٌ تهتـز لهـا الجـدران. صرخة أعلـم صاحبتهـا.. صرخـة جـدتي الراحلة.

يتكـور جسـد القـط عـلى الطريـق وتنبثـق مـن جسـده الدمـاء وتسيل حـول جسـده مكونـة بركـة مـن الدمـاء. يرتعش القـط غـير مـرة قبـل أن تهمـد حركتـه وقـد مـات.

ألتفت خلفـي لأرى شبح جـدتي يرمقني في مقتٍ. كان هـذا نهاية تماسـكي فهويـت أرضًـا وقـد فارقنـي وعيـي، لكنني قبـل أن أفعـل أسـمع صوتهـا مـن بعيـدٍ وهـو يـصرخ فيَّ:

- أيها الأحمق، سوف تدفع الثمن.

وأفيـق لأدرك أن يومًـا كامـلًا قـد مـرَّ، الشـقة سـاكنة كالقبـور وأبحـث في كل مـكان عـن القـط فـلا أجـده وأتسـاءل بأمـل هـل انتهـت متاعبي مـع هـذا القـط، وهـل حقًـا كانـت جـدتي تبحـث حقًـا عـن سبيل مـا للعـودة مـن خـلال القـط.

لا أعلم!!

وحتى الآن ومـن حـينٍ لآخـر أشعر بالقـط الأسـود كشبح خفـي حـولي. يصلنـي مـواؤه المخيـف في جـوف الليـل فأرتعـد.. وفي أحلامـي مـا زالـت جـدتي تؤكـد أنهـا سـتعود لتنتقـم منـي.

ترى هل تعود يومًا لتنتقم كما تهددني؟!!

لست أدري..

***

فريدة

تمنحنـي ريـم طمأنينـة أفتقدهـا وراحـة أنشـدها. تبـث في حيـاتي صخبًـا يُـبدد وحشـتي واهتمامًـا وشـغفًا لم أعرفهـما قبـلًا. تمنحنـي أمـلًا في غـدٍ آخـرَ غـير الـذي أنتظـره، وحلـمًا حلـوا يزيـح عـن بـالي كوابيـسَ لا تنقطـع. تمنحنـي حُبًّـا لم أتعرفـه أو أتذوقـه قبلهـا وحنانًـا تـوارى مـن حيـاتي يـوم ماتـت أمـي قبـل أعـوام طـوال.

أراهـا ضحكـة تنير الأفـق لناظـري وأحسـها عذبـة كحبيبـة الشـابي التـي أنشـدها قصيـدة فمنحهـا الخلـود.

عذْبةٌ أنتِ كالطّفولـة، كالأحـلام كاللّحـنِ، كالصبـاحِ الجـديـدِ

كالسَّماء الضَّحُوكِ كالليلة القمـراءِ كـالـورد.. كابتسـام الـولـيـدِ

أُغمـض عينـيَّ عـلى فـراشي وأردد القصيـدة العبقريـة التـي أحفظهـا الآن بخشـوع راهـب متبتـل أو شـيخ خاشـع

يا لها من طهـارةٍ، تبعـثُ التقـديس في مهجـة الشَّقـيِّ العنيـدِ!

يا لهـا رقَّـة تكـادُ يَـرفُ الـوَرْدُ منها فـي الصخْـرة الجُلْمُـودِ!

وأسرح في لقائنا الأول!!

لم تكـن النظـرة الأولى هـي مـا أصابـت قلبينـا بسـهام الحـب فقيدتنـا بحبالـه. كنـت قـد رأيتهـا قبلهـا لعـام كامـل كزميلـة دراسـة دون أن تشـغل بـالي للحظـة واحـدة ودون أن ألتفـت إليهـا ولـو مـرة.

يتابعهـا عصـام صديقـي الـذي تعرفتـه في أيامـي الأولى بالكليـة، بنظـرات تقطـر لزوجـة ولا أبـالي، بـل ولا أهتـم حتـى بزجـره أو منعـه عـن هـذا. كان هـذا شـأنه أن يكـون وقحًـا، كـما أنـه شـأنها أن تردعـه لـو أزعجهـا بسـلوكه. كانـت عـشرات العيـون تلاحقهـا أينـما حلـت أو ارتحلـت، دون أن تشـارك عينـاي تلـك العيـون الجشـعة.

جميلـة هـي.. وهـل ينكـر حـلاوة الزهـور وبهـاء الفراشـات غـير العميـان، لكـن هـذا في الواقـع لا يعنـي لي أي شيء. الجميـلات في كل مـكان مـن حـولي والفتيـات والانشـغال باصطيادهـن ليـس مـن ضمـن اهتماماتي الحاليـة أو المسـتقبلية.

لكـن نهايـة العـام حملـت لكلينـا الجديـدَ، وأرسـلت لقلبينـا أعاصيرهـا العاتيـة المعبقـة بالعشـق والهيـام فارتجفـا، واندهشـا ثـم خضعـا لسـلطان العشـق الـذي لا يرحـم. كانـت يومهـا تغـادر الكليـة بصحبـة صديقـة لهـا لم أرَهـا دونهـا قـطّ. كانـت جميلـة هـي الأخـرى أو لنَقُـل إنهـا أكثـر فتنـةً، لكـن جمالهـا كان ممزوجًـا بميوعـة و دلالٍ لا تداريـه.

تدعـى صديقتهـا فريـدة، وكانـت فريـدة بحـق في حلاوتهـا وتبرُّجهـا وملابسـها التـي تـبرز وتكشـف مـن جسـدها الكثـير ولا تـدع أبـدًا فرصـة للتخيـل. وعـلى مقربـة مـن بـاب الكليـة كان هنـاك سـائق إحـدى سـيارات السـوزوكي الصغـيرة التـي تنقـل الطـلاب مـن بـاب الجامعـة للمـترو، ينتظـر أن تمتلـئ سـيارته ليغـادر.

راح يضايقهـا حينهـا بلزوجـة وتبجـح وإلحـاح، فلـم يعـيراه انتباهًا، وكنـت وقتهـا عـلى مقربـة منهـا أراقـب وأرى. وحـين تحـول التبجـح لوقاحـة، وتبدلـت المعاكسـة لتحـرش، وامتـدت يـدَه نحوهمـا لتنـال بعضًـا مـن حـلاوة جسـديهما، تكـوَّر كفـي الأيمـن هـو الآخـر واندفـع نحـو أنفـه فأدمـاه. ثـم تلاحقـت بعدهـا لكـماتي في وجهـه حتى شـوهته، حينهـا هـرع زمـلاؤه مـن السـائقين للـذود عنـه واحتشـد الطـلاب مـن حـولي لنـصرتي، ولاح في الأفـق القتـال.

ومـن بعيـدٍ راقبـت عينـين عسـليتين مـا يـدور، وصاحبتهـما تنتظـر بلهفـة أن تنتهـي المشـاجرة لتقـترب مـن بطلهـا الـذي هـبَّ لنجدتهـا، كـي تمنحـه الجائـزة الكـبرى.

قلبها وعشقها!

وانتهـى العـراك، فاقتربـت منِّـي وقـد تمـزق قميـصي وتـورم جانـب خـدي الأيمـن إثـر لكمـة طائشـة، وشـكرتني كثـيرًا وهـي تقـترح أن نـرى طبيبًـا مـا كـي نطمئـن لإصابتـي التـي لا أحِـس بأثرهـا. لكننـي رفضـت بتهذيـب هربـت مـن أمامهـا، وأنـا أداري بخجـلٍ مـا يكشـفه القميـص الممـزق.

أخبرتـني بعدهـا أنهـا رأتنـي في تلـك اللحظـة بطـلًا إغريقيًّـا قاتـلَ مـن أجلهـا فاسـتحق حبهـا، بينـما انشـغلت حينهـا بقميـصي الممـزق والحـسرة تنهشـني مـن أجلـه. لم أكـن يومًـا ميسـور الحـال ونافسـت جـدتي العـم سـكروج في بخلـه فلـم تهبنـي أبـدًا مـن مالهـا إلا القليـل.

واندفعت نحوي ريم في اليوم التالي فور أن رأتني.

كانت تشكرني ثانية وأنا أقسم لها إن الأمر لا يستحق. هذه المرة كنت ألحظ للمرة الأولى هاتين العينين البندقيتين الصافيتين كماء الجداول، قبل أن أتوه في دروبهما المتشابكة لبرهة، وحين شعرت أنني لن أتمالك نفسي تركتها في عجلٍ وابتعدت.

لكن الحال حينها قد تبدَّلَ. والقلب الذي أتى قبل الساعة لها ليس هو القلب الذي غادرها. وتوهجت جذوة الحب الأولى فاشتعلت روحانا، حتى صرنا بعدها لا نفترق.

أنتِ.. ما أنتِ؟ أنتِ رسمٌ جميل عبقريٌ من فنِّ هذا الوجودِ

فيكِ ما في من غموضٍ وعُمقٍ وجمالٍ مُقَدَّسٍ معبودِ

أنتِ.. ما أنتِ؟ أنتِ فَجْرٌ من السّحرِ تجلّى لقلبيَ المعمودِ

تمنحني ريم في كل حين ما يرضيني ويفتنني بها، لكنها أحيانًا أخرى تصب على رأسي الكوارث، وهذه المرة أرهقتني بفريدة صديقتها الفاتنة ومشكلتها الغريبة الفريدة.

لا أدري ما شأني بها، وما ذنبي في الاهتمام بما تعانيه. لكنه الحب.. وهل هناك من يمكنه أن يعترض على أحكامه.

أنتِ فوقَ الخيال، والشِّعرِ، والفنِّ وفوْقَ النُّهَى وفوقَ الحُدودِ

مات والد فريدة، رجل الأعمال الثري للغاية الذي لا أفهم فيما كان يعمل ولا كيف اكتسب تلك الأموال الطائلة. الأمر كان صعبًا على الفتاة بلا شك لكنه ليس مأساة. أنا مثلًا أحيا منذ طفولتي المبكرة بلا أبٍ ولا أم ولم تسقط السماوات بعد.

أعتقد أن هذا حال كل البشر لولا المبالغة والادعاء!

ستكون أيام الفراق الأولى عسيرة مرهقة ونحن لا نصدق. لكن توالي الأيام يطفئ نيران اللوعة رويدًا، رويدًا، وبعد زمنٍ سيصير الفراق ذكرى حزينة نأسى قليلًا لذكرها لننساها بعد برهة ونعود لحياتنا ثانية.

لكن فريدة رفضت أن تصدق أن (بابي) الذي يدللها قد مات فجأة. رفض عقلها أن يخضع لتلك الحقيقة الكونية وراحت تصر أنه ما زال حيًّا. كانت تزور قبره كل يوم منذ وفاته، بمفردها غالبًا، ثم تلصق أذنيها طويلًا على باب القبر الحديدي وهي تسترق السمع عسى أن يناديها من داخله كما تتمنى وتتوهم.

كانت تتحرك في أنحاء الفيلا الصغيرة الكائنة في ضاحية المعادي ليدور بينها وبين شبحه المزعوم حديثٌ وهميٌّ. تقسم لأمها إنها تحدِّثُه، ولا يعترض أحد على ما تزعمه إشفاقًا عليها، والكل يعلم كم كان تعلقها به.

إنه الأب الذي منحها كل شيء ولم يرفض لها طلبًا كما لم يقيدها يومًا بقيدٍ ولم يحتج لحظة على ما تقوم به من حماقات مهما كان غير مقبول.

لم تفارقها ريم منذ الوفاة تقريبًا. وظلت تحاول أن تعيدها لرشدها دون جدوى. كانت تخبرني أن جنون فريدة كان يشتعل لو حاولت أن تُفهمها أن أباها قد مات ولن يعود، وتحدثني كل يوم عن تبدل شخصيتها وما تفعله من غرائب.

تسألني المشورة والمساعدة، فأخبرها برأيي بلا مواراةٍ:

- هي لا تحتاج لمساعدتي. إنها بحاجة لطبيب نفسي.

- صديقتي ليست مجنونة. لا تتحدث عنها هكذا أرجوك.

- لكنها ستصير كذلك لو تجاهلتم الأمر أطول من ذلك. صديقتك تنحدر بسرعة نحو مستنقع الخبال، ولن يفاجئني أن أعلم أنها تم إيداعها مستشفى الأمراض العقلية يومًا ما.

- أنت لا تفهم، فالأمر ليس سهلًا. لن تقبل أمها أن يراها طبيبٌ نفسيٌّ، هل تعلم أنها تتجاهل ما تفعله فريدة ولا تهتم بأن تجلس إليها أو أن تهوِّن عليها الأمر. أعتقد أن علاقة فريدة بأمها لم تكن العلاقة المثلى، ربما كان هذا يفسر ما تعانيه فريدة الآن من صدمة لفقدان والدها الذي كانت تتغنى بحبها له. هناك فجوة حقيقية بينها وبين أمها ولهذا أشك أن تكترث أمها بعرضها على طبيب ما.

لكنني رغم ما تقوله لا أشعر بالتعاطف مع فريدة ولا أهتم بعلاقتها بأمها. ما زالت في عيني الفتاة المدللة المستهترة التي تبالغ في مشاعرها. هناك مئات الفتيات اللاتي يفقدن آباءهن كل لحظة دون أن يفعلن ما تقوم به.. ولهذا أقول ببرودٍ:

- هذا يعني أن مشكلتها مزدوجةٌ، أمها التي لا تحبها، وأبوها الذي فقدته، صدقيني يا حبيبتي هذا مؤشر قوي لحاجتها لمساعدة نفسية.

وتتباعد مكالماتي مع ريم، حتى أشعر أنني لم أعد أشغل جُل اهتمامها. أسألها عن السر وأنا أعلم الإجابة.. وبالفعل لم تخيب توقعاتي حين قالت لي:

- إنها فريدة. حالتها تزداد سوءًا كل يوم. أخشى أنها لن تبرأ أبدًا من فقدها لأبيها.

أتنهد بلا مبالاةٍ وأجيب:

- أرى أنك تُحمِّلين نفسك فوق طاقتها في رعايتها. هذه مسئولية أهلها في الأساس.

لكنها تحتج عليَّ وتصرخ:

- لا تشعرني أنك قاسي القلب هكذا. إنها صديقتي الوحيدة وهي في أمسِّ الحاجة للمساعدة. إنها مسكينة للغاية ولا أحد هناك ليساندها أو يهتم بها. أخوها الوحيد لا تراه تقريبًا وأمها لا تكترث بها. كيف يُمكنني أن أتركها بعد كل هذا تعاني هكذا بمفردها.

بالطبع لا أملك أن أمنعها من الاهتمام بصديقتها ولا أرغب كذلك في إغضابها؛ لذا أتجاهل الأمر وأنتظر أن يأتي الفرج.. فإما أن تبرأ فريدة وتعود لحياتها وتعود ريم لحياتي، أو تجن كما أتوقع أن يحدث، وتُودَع في مصحة تعتني بها، بدلًا من أن تقوم ريم بالأمر بمفردها.

لكن الأمر يزداد سوءًا رغمًا عني. ولدهشتي تطالبني ريم أن أكون بجوارهما وهما تقومان بعملٍ أحمق. لقد بدأت فريدة فجأة في مطالعة كتب غريبة عن الأشباح والأرواح والموتى وكيفية الاتصال بهم. زعمت أن أباها يدعوها للحديث لها وأنها ترغب في سماع صوته ولو لمرة واحدة أخيرة.

أي أرواحٍ ترغب تلك الحمقاء في الاتصال بهم؟ وهل تجرؤ على استحضارهم، وهي التي تموت فزعًا لو برز صرصار أو فأر أمامها. بالطبع كنت أعلم الكثير عن تلك الفنون السوداء، كانت جدتي في الواقع خبيرة حقيقية في تلك الأمور، بل وجعلتني كثيرًا وسيطها للاتصال بالموتى وعفاريتهم وشياطينهم. ورغمًا عني كنت أشترك في تلك الأمور الشنيعة، دون أن أمتلك حق الاعتراض.

فلم يكن الأمر ليعيقها لو رفضت، ولديها من الحيل ما يجبرني على الخضوع.

كنت أوقن دومًا أنه لا يوجد ما لا تقدر جدتي على القيام به.

العجيب أن ريم لم تمنعها من الغوص في ضَلالها. لم تحاول أن تفهما أن تلك الأمور خطيرة وليس من العقل العبث معها. وفاجأني أن ريم تعتقد أن اتصال فريدة بروح أبيها وحديثها معه قد يريح قلبها ويسكن خبلها، بل ووجدتها تحاول أن تقنعني بالمشاركة في الأمر.

كانت حجتها أنني قد عايشت خبرات كهذه من قبل مع جدتي كما أخبرتها غير مرة وأن وجودي بجوارهما أثناء القيام بتلك التجربة الخطيرة هام لحمايتهما. قالت إنهم سوف يستعينون بكتاب قديم للسحر لتحضير روح الرجل الميت، وسوف أكون أحد المشتركين في الأمر.

كان هذا آخر ما أفكر فيه أو أنوي القيام به، لكنه الحب وهل يملك المحبون حق الاعتراض على رغبات عشاقهم ونزواتهم.

كنا خمسة نجلس في الظلام. أيادينا متشابكة، وهناك شمعة حمراء يتراقص لهبها في منتصف نجمة خماسية، مرسومة في وسط الدائرة التي صنعناها بأجسادنا. الكثير من التعاويذ والهمهمات تلقيها فريدة، من كتاب قديم ذي صفحات صفراء مهترئة. طال الوقت وظللنا نحاول إنجاح التجربة الفاشلة دون أن يحدث شيءٌ، بينما رحت أتجاهل نظرات ريم التي كانت بجواري وهي تسألني بصمتٍ هل سيفلح الأمر.

لـن يفلـح الأمـر يـا عزيـزتي وهـذا مـا أتمنـاه مـن كل قلبـي. لقـد سئمت تلـك الألعـاب اللعينـة التـي ماتـت بوفـاة جـدتي، ولـن أصحـح الأمـر لكـم، ولـن أردد إحـدى التعاويـذ الحقيقيـة التـي أحفظهـا، والتـي أعلـم أنهـا قـد تفلـح في جلـب روح أبيهـا الراحـل، مـن عالمهـا الغامـض ليلبـي نداءنـا.

تمـضي سـاعتان مـن الفشـل ويحتشـد العـرق في جبـاه الجميـع قبل أن تنشـج فريـدة وهـي تـصرخ بيـأس مناديـة أباهـا وقـد أدركـت الفشـل.

ويمـضي يومـان وقـد ظننـت أن تلـك المحاولـة الفاشـلة سـتدفعها للتعقـل والكـف عـن معـاودة فكرتهـا الحمقـاء. لكنهـا كانـت مـصرة عـلى المـضي قدمًـا في الأمـر وقـد تملكتهـا الفكـرة حـد الجنـون.

وحـين خرجـت بصحبـة ريـم للمـرة الأولى منـذ شـهر أرى في عينيها مـا ترغـب في إخفائـه عنـي. أجلـس قبالـة وجههـا ولا أسـمح للعينـين البندقيتـين بالهـرب مـن محاصرتي. وتخـبرني بالحقيقيـة أو الكارثـة التـي تزمعـان اقترافهـا سـويًا.

هنـاك الشـيخ كريـم، أخبرتنـي أنـه عـالم روحـاني يفهـم في تلـك الأمـور الخارقـة وأنـه يتقـن فنـون الاتصال بـأرواح الموتـى واسـتدعائهم. لم أكـن قـد سـمعت عنـه قبـل ذلـك. حاولـت أن أفهمهـا أن معظـم هـؤلاء دجالـون في الغالـب، لكنهـا تـصر أنـه مختلـف وأنهـا قـد سـألت عنـه بنفسـها. ألعـن عنادهـا في سري، ثـم أقـرر أن أكـون معهـا، لـن أسـمح لريـم أن تتواجـد في مـكان فيـه دجـال دون أكـون بصحبتهـا.

كان الرجـل يقطـن في شـقة حديثـة تشـعرك أنهـا عيـادة لطبيـب وليس وكـرًا للسـاحر أو دجـال. هـو نفسـه يرتـدي بذلـة كاملـة عصريـة

في غاية الأناقة ومن خلف مكتبه احتشدت على الحائط عشرات الشهادات الأجنبية التي تجزم أنه قد نال درجة الماجستير أو الدكتوراه في فنون الدجل.

وندلف سويًا حجرة جانبية. يطفئ الشيخ كريم الأنوار كلها لنقبع في ظلام دامس قبل أن يشق صوته الظلام والصمت بتعويذة ما. تجاوبه بعض الأصوات الخفية وتقبض ريم على ذراعي بأنامل ترتجف فاربت عليها مطمئنًا.

وبعض لحظات يتعالى صوت حلقي مفزع في الفراغ. يسأله الشيخ كريم عن اسمه فيردِّد أنه مسعود الفولي أبو فريدة. يرتفع صوت لهاث فريدة من الإثارة قبل أن تسأله سؤالًا عجيبًا.

– لو كنت أبي فأخبرني، أين وضعت العقد الماسي آخر مرة؟

يدهشني السؤال الغريب المباغت، ويطول الصمت قبل أن يجيب الصوت الحلقي بصوت خشن. أنه بعد أن مات لم يعد يذكر تلك الأمور التافهة عن الدنيا. هنا تقول فريدة بثباتٍ غريبٍ وأنا أكاد أن أرى عينيها تلمعان بغضبٍ في الظلام.

– هذا يكفي. لا أرغب في المزيد من الكذب والادعاء، دعونا نذهب!

تقولها وتنهض دون أن تعبأ بالظلام أو تعبأ بالروح التي من المفترض أن الشيخ كريم قد جلبها. نتبعها وقد اشتعل ضوء الحجرة فجأة وفي السيارة تبكي فريدة وهي تخبرنا أن الرجل نصاب. أخبرتنا أن أباها اعتاد أن يخبئ عقدًا ثمينا من الماس جلبه من أجلها في خزانة خاصة بحجرة مكتبه. لم يعلم أحد غيرها بأمر تلك

الخزانـة الصغـيرة التـي تحـوي بعـض الأوراق الأخـرى المهمـة الخاصـة بأبيهـا. كانـت الخزانـة سرهـا وسر أبيهـا الـذي جمعهـما معًـا. حتـى أمهـا لم تكـن تعلـم عـن تلـك الخزانـة شيئًا. كانـت علاقتهـا بأبيهـا غريبـة كـما يبـدو، حتـى إنـه كان يثـق بهـا دون أمهـا.

وأصرخ في ريـم أن هـذا يكفـي. وأحـاول ببعـض الخشـونة أن أبـين لهـا أن عليهـا أن تكـف عـن تلـك الحماقـات التـي تقـوم بهـا مـع صديقتها.

وبعـد حـين يأتينـي صـوت ريـم صارخًـا، أن صديقتهـا فريـدة تمـوت. وأدرك في صوتهـا توتـر حقيقـي:

- «لـن تصـدق مـا صـارت إليـه الآن، لقـد امتنعـت تمامًـا عـن الطعـام والـشراب منـذ أسبوع كامـل. هـزل بدنهـا و انهـار إدراكهـا حتـى إنهـا لا تكـف عـن الحديـث مـع أشـباحٍ خفيَّـةٍ لأبيهـا»

ويعلو نحيبها ونشيجها قبل أن تصيح بي:

- يجب أن تساعدني وأن تفعل من أجلها شيئًا ما، وإلا لن أسامحك.

ولا أدري مـا يمكننـي أن أفعلـه مـن أجـل صديقتهـا. لكنهـا تُواصِل حديثهـا وتـضرب ضربتهـا الأخيرة.

- قنـاع جدتـك الغريـب. أخبرتنـي أنهـا كانـت تسـتعمله للاتصـال بالموتـى. لمـاذا لا نجرِّبـه للاتصـال بـروح والـد فريـدة. أرجـوك أن تقبـل يـا شريـف، قـد نفلـح هـذه المرة، وربـما كان في هـذا شـفاؤها.

ولأول مرة أشعر بالندم أني أخبرتها بهذا الأمر، وأقول مستنكرًا:

- أنت تمزحين بلا شك. لن أستخدم هذا القناع أبدًا.

بالطبـع كنـت مـصرًّا ألا أعبـث بالقنـاع المخيـف، ثابتًـا في قـراري كالطَّـود، لكنهـا ريـم، واذا أصرت عـلى أمـر - ودائـمًا تُـصر - فلـن يهـدأ

لها بال حتى تناله، وأمام إلحاحها، ثم غضبها بعد ذلك لم يكن ممكنًا أن أرفض.

أدخل الحجرة الكئيبة الكريهة وأغالب في نفسي النفور وأنا وأفتش عن القناع. لم يكن تحت الفراش كما اعتقدت، وكان الدولاب بريئًا من حيازته، لكنني وجدته معلقًا على الجدار كأنما كان بانتظاري وأنا الذي لم أره على الجدار يومًا.

كانت الحجرة كريهة ولديها من ألاعيب الشعوذة الكثير. التقطت القناع الملوّن بيدٍ ترتجف وبرزت لذاكرتي تلك المرة التي ارتدته جدتي من أجل تلك القروية المسنة التي انهالت على كفي وقدمي جدتي تقبيلًا وتذللًا، من أجل أن تفعل من أجلها أمرًا ما، لم أدركه حينها.

لا أعتقد أن تلك القروية بملابسها المهلهلة المتهرئة كانت بقادرة على إعطاء جدتي نقودًا أو أجرًا. لكن جدتي ساعدتها. ارتدت القناع بعد أن أظلمت الحجرة تمامًا وأمرتني بالصمت والهدوء. حينها تبدلت فجوتا العينين في القناع لتصيرا ناريتين وشهقت المرأة الريفية فزعًا وانتفض قلبي إثارة ثم تكلمت جدتي بصوتٍ لا ينتمي لها.

لا أذكر بالطبع الآن الكلمات التي خرجت من فم جدتي، ولا أعلم لماذا اشتعلت النيران فجأة في الحجرة. لكنني أحسست بالرعب فدفنت وجهي في حجري كي لا أرى الصخب الذي دار بغتة، ولا زالت الصرخات الرهيبة التي تصاعدت في ذلك الوقت لا تفارق أذنيّ.

وهـزني جـدتي بعـد أن هـدأ كل شيء لأرفـع رأسي عـن عينـين تترقـان بالدمـوع. ثـم طالبتنـي جـدتي أن أعـود لحجـرتي ومـا زال القنـاع الغريـب بيدهـا. فتشـت ببـصري حينهـا عـن المـرأة الريفيـة بالحجـرة فلـم أرَ غـير كومـة مـن ملابـس سـوداء محترقـة تقبـع في المكان الـذي كانـت تجلـس فيـه المـرأة. ثـم انفرجـت شـفتاي عـن كلـمات حائـرة مرتجفـة

- أين ذهبت المرأة؟

دفعتنـي جـدتي خـارج حجرتهـا وعالمهـا الغامـض وهـي تغمغـم بصوتهـا الـذي اسـتعادته ثانيـة:

- ذهب بها فضولها.

وحتـى الآن لا أفهـم مـا معنـى تلـك الإجابـة الغامضـة، لكننـي تعلمت أن القنـاع خطـيرٌ وأنـه مـن الحماقـة العبـث بـه. وطـوال أعـوام بعـد ذلـك أيقنـت صـدق حـدسي حـين تكـرر اختفـاء الكثيريـن بعـد استخدامه.

بالطبـع كان عـليَّ أن أرفـض اسـتخدامه، لكـن غضـب ريـم كان أعظـم مـن رفـضي فأذعنـت للأمـر.

وفي فيـلا فريـدة التقينـا ثانيـةً في تجربـة أعلـم أنهـا لـن تخيـب هـذه المـرة كـما جـرى في المـرة الأولى.

وفي الظـلام قبـع نفـس الأشـخاص الخمسـة الذيـن حـضروا التجربة الأولى، والإصرار يدفعهـم لخـوض تجربـة أخـرى. صنعـوا بأجسـادهم مُربّعًـا جلـس كل منهـم في أحـد زوايـاه وجلسـت أنـا في منتصفـه.

همهمت فريدة بصوتٍ واهنٍ وهي تدير عينين زائغتين بيننا:

- والآن ماذا سيحدث.

لا أرغب في إجابة السؤال الغبي لكني أفعل:

- سوف نسعى للتواصل مع روح أبيك. نحن هنا اليوم كما أذكر من أجل هذا!

أخبرهم أن يغمضوا عيونهم. أن تصفو عقولهم وألا يفكروا إلا في والد فريدة، وأن يرددوا اسمه سِرًّا بلا انقطاعٍ.. يفعلون ما آمرهم به وأشعر بثقل القناع بين أناملي.

ويتبدَّل ملمسه. لم يعد ناعمًا مصقولًا كما كان، فيصير جلديَّ الملمس، كأنما أقبض بين أناملي على قناع مغطىً بجلد بشري. كان أمرًا اعتدته من قبل مرارًا فلم أعد أرتجف لذلك التحول الذي لا يشعر به أحد غيري في قلب هذا الظلام.

وأرفع القناع نحو وجهي وأعتصر ذاكرتي لأتذكر التعويذة التي عليَّ أن أقوم بها. يصل لسمعي شهقة متوترة فأدرك أن عينيَّ القناع قد تحولتا للون اللهب. ويحط ثقلٌ ما على صدري فألهث. ومن حنجرتي يخرج صوت غريب.

«فريدة! هل هذا أنت يا ابنتي؟»

وتصرخ فريدة في الظلام وقد عاد لصوتها قوته:

«أبي. نعم إنه أنت هذه المرة. أليس كذلك؟ أخبرني أرجوك أنك هو!»

- أنا روحه التي لا تفهم أيَّ حماقة تلك التي تقومين بها الآن. ماذا تبغين يا فريدة؟»

وتتردد فريدة قبل أن تجيب الجواب الصاعق:

- «أريدك أن تعود إلي أو أذهب أنا إليك. لا أحتمل الحياة من غيرك يا أبي!»

- «لكل شيء ثمن. فهل تحتملين ثمن عودتي يا صغيرتي؟»

- «إنني مستعدة لدفع حياتي نفسها كي تعود ثانية!»

وأغالب لساني كي لا تقول الروح الشريرة الجملة التالية التي أعلم أنها آتية لا محالة. لكن الكلمات تنزلق من فمي رغمًا عني، حاملة شهوة لا تُخفى، وتزداد العينان اشتعالًا والقناع يكاد أن يحرق وجهي وحرارته ترتفع.

- أأنتِ واثقة مما تقولينه؟

- تمام الثقة وبلا ذرة تردد واحدة يا أبي.

ثم أشعر بقدومهم في المكان. عَلِمت هذا من الصخب والنيران التي راحت تتوهج في كل مكان في ظلام الحجرة، عرفت أنهم في المكان من الشهقة العالية التي خرجت من فم فريدة، والصرخة المرتفعة التي ألقتها ريم ثم فقدت وعيها بعدها، ثم خرج من القناع شياطينه.

لم أخبر أحدًا من قبل أن للقناع شياطين يسكنون داخله، ويتغذون على طلاب مساعدته. القناع ملعون وقد علمت سره منذ أعوام، لكن العهد الذي قطعته حينها على نفسي يمنعني من إفشاء سره.

ويشتعل بغتة جسد نبيل صديق فريدة الذي لا أحبه.

وتحيط عشرات الشياطين بجسد سها، صديقة فريدة القبيحة التي لا تحدثني أبدًا تكبرًا وتعاليًا، فيختفي جسدها.

وجحظـت عينـا فريـدة كأنـما تفـارق روحهـا الجسـد. في الواقـع هـذا مـا كان يحـدث في تلـك اللحظـة بالفعـل. بينـما ألتـف بجسـدي حـول جسـد ريـم الرقيـق التائـه في غيبوبتـه، والتـي أتمنـى أن تطـول كـي لا تشـهد مـا يـدور الآن مـن أهـوال.

لـن يؤذوهـا طالمـا أحيطهـا بجسـدي والقنـاع مـا زال عـلى وجهـي لكـن هـذا ليـس مصـير الآخريـن. ومـن فـم فريـدة تـتردد الكلـمات التـي أدرك مغزاهـا.

- «ابنـة بـارة بالفعـل، هكـذا يجـب أن يكـون الأبنـاء، سـوف أهتـم مـن أجلهـا بجسـدها هـذا مـا حييـت.»

ثـم التفـتُّ إليـه ومـا زال القنـاع عـلى وجهـي وقلـت برجـاءٍ يحمـل بعـض التحذيـر:

- «لـن تخـبر ريـم بالحقيقـة. دعهـا تعتقـد أن التجربـة قـد فشـلت وإلا لاحقتـك وأعدتـك لجحيمـك ثانيـة، لا أريدهـا أن تعلـم أنـك قـد حللـت في جسـد ابنتـك.»

وتفيـق ريـم. تنظـر نحـوي بخـوفٍ فأنـزع عـن وجهـي القنـاع. تسـأل عـن سـما ونبيـل فأخبرهـا أنهـما قـد فـروا هاربـين. تنظـر إلى فريـدة فتطالبهـا أن تغـادر منزلهـا لأنهـا تبغـي المكـوث فيـه بمفردهـا.

ثـم سـألني ريـم بعدهـا لمـاذا يـا تـرى تبدلـت فريـدة بعـد تلـك التجربـة. لمـاذا تجاهلتهـا ثـم قطعـت علاقتهـا بهـا تمامًـا بعـد ذلـك. أخبرهـا أن هـذا شـأن فاقـدي العقـل المخبولـين. ثـم أحتضـن كفهـا بـين أناملـي وأطالبهـا أن تنسـاها وأن تهتـم فقـط بحُبِّنـا ومشـاعرنا، وأعـود لأهمـس في أذنيهـا ثانيـة:

آهِ يا زَهرتي الجميلة لو تَدْرِين ما جَدَّ في فؤادي الوَحِيدِ
في فؤادي الغريبِ تُخْلَقُ أكوانٌ من السحر ذات حسن فريد
وشموسٌ وضَّاءة ونجومٌ تَنْثُرُ النُّورَ في فَضَاءٍ مديدِ
وربيعٌ كأنّه حُلُمُ الشّاعرِ في سَكْرة الشّباب السعيدِ
ورياضٌ لا تعرف الحَلَكَ الدَّاجي ولا ثورة الخَريفِ العتيدِ
وَطُيورٌ سِحْرِيَّة تتناغَى بأناشيدَ حلوة التغريدِ
وقصورٌ كأنَّها الشَّفَقُ المخضُوبُ أو طلعة الصباحِ الوليدِ
وغيومٌ رقيقة تَتَادَى كأباديدَ من نُثَارِ الورودِ
وحياة شعريَّة هي عندي صورة من حياة أهلِ الخلودِ

– «آه كم أهواكِ يا ريم!»

***

حجابان

وأطلقت ريم ضحكتها الصافية، فأذابت اعتراضي وذهبت برفضي، وواصلت حديثها:

- أخبره بالله عليك أن يبتعد عنها وأن يكف عن تلك المحاولات الطفولية التي يقوم بها لجذب انتباهها. إنه لا يفقه شيئًا في أمور الفتيات ولا كيفية جذب انتباههن. لو ظل هكذا مائة عام فلن يصل لشيء.

أجيب في احتجاج:

- لكنه يحبها!

- ومتى كان هذا كافيًا، طالما لا تشعر به على الإطلاق؟! ليحافظ على ما بقي من كرامته، وليتوقف.

كانت تُحدِّثني عن عمرو صديقي وصديقتها أسماء. أخبرتني بمحاولاته التي لا يكف عن القيام بها ليلفت انتباه أسماء وتعلم بحبه. كان يحبها منذ أعوام، ويخفي حبها في ثنايا قلبه لكن عيون المحب تفضحه.

كانت أسماء جارته وجارتي في الوقت نفسه. وبدأ الأمر حين كانت في المرحلة الثانوية. كان يراقبها وهي تتحرك أمامه في رشاقة وخفة وهي تحتضن كراساتها وكتبها إلى صدرها، في طريقها إلى درسٍ ما، أو عائدة منه إلى منزلها، فيدق قلبه في جنون وتدمع عيناه في لوعة واشتياق، ثم يتنهد.

راح يتبعها بعينيه وينتظر أن تخرج إلى الشرفة وهي ترتدي بيجامتها الضيقة، وقد عقصت شعرها خلف رأسها، فيرتفع عنقه نحوها وتتعلق عيناه بها، و هو يتساءل في لوعة، متى تحبه وهل يأتي اليوم الذي يتزوجها فيه؟

تغيب عن بصره لأيام فيلوذ بشرفة منزله المقابلة لشرفة بيتها في انتظار أن يراها ولو للحظة أو يلمح طيفها من خلف الستائر والزجاج. ولو طال الغياب يسوء حاله، ويضيق خُلقه، ويضطرب عقله، ويلوذ بعزلته، حتى تشرق شمسها ثانية ويراها ليذهب الجدب عن روحه، ويعاوده ربيعه المعبق بالأمل.

راح يكتم شوقه في أعماق قلبه، بينما يمنعه الحياء والخجل والتردد من البوح لها بما يعتمل في نفسه. كلنا رأينا العشق في عينيه، فنصحناه أن يخبرها بحبه، وأن يفارق خجله هذا كي ينعم بالوصال.

اقترحت عليه أن يلجأ لأخته وقد كانت صديقتها، لتخبرها بأمره، فأصابه بالذعر، واحتقن وجهه، وكأنني قلت شيئًا مُنكرًا -والعياذ بالله- قبل أن يقسم عليَّ ألا أعود لهذا الحديث ثانية.

يلجمه خجله، ويسقمه العشق ولا يرحمه، ويكتم هواه، حتى نرى العشق قاتله يومًا ما حتى أتذكر قول الشاعر:

إنا تكتـــــــــَّمنا الهوى.. والداء أقـــــستله دَفينة.

العجيـب أنهـا حـين أنهـت دراسـتها الثانويـة التحقـت بنفـس كُليتنـا، وصـارت زميلـة لي ولـه، وإن كنـا نسـبقها بعامـين. ظننـت أن الحـال قـد يتبـدل، وأن الدراسـة في مكانٍ واحـدٍ قـد تجمـع بينهـا، لكنني كنت مخطئًا.

ظـلَّ عـلى حالـه وخجلـه يرقبهـا مـن بعيـدٍ ولا يقـترب. يحضر محاضراتهـا وهـو يجلـس في ركـن بعيـد مـن المـدرج، ليكتفـي بالنظـر إليهـا ومراقبـة حالهـا. تسـير في ردهـات الكليـة فيلاحقهـا بعينيـه. فـإن غابـت مـن أمامـه راح يبحـث عنهـا كالمجنـون.

إن حدَّثهـا زميـلٌ مـا، نهشـته الغـيرة، وإن ضحكـت لدعابـة زميـلٍ آخـر ظـن أنهـا ربـا معجبـة بـه، فتثـور نفسـه ولا يهـدأ حتـى ينصرف عنهـا هـذا الزميـل، أو تتركـه هـي.

تجمعهـا الصـدف غـير المرتبـة حينـا فيتقابـلان وجهًـا لوجـه. تبتسـم لـه ابتسـامتها الخفيفـة وتحييـه بإيـاءةٍ مـن رأسـها، وتحـرك شـفتيها بتحيـة هامسـة لـه. حينهـا يتبـدل حالـه وتغـادر السـكينة نفسـه فيرتبـك ويضطـرب، وتسـقط أغراضـه التـي يحملهـا وقـد انتفـض جسـده بغتـة، وهـو لا يـدري مـاذا يفعـل، حتى يحتقـن وجهـه وتنقطـع أنفاسـه، فتخـال أن روحـه سـتفارق جسـده، فتنـصرف أسـاء مـن أمامـه مسرعـة في توتـر.

في هـذا الوقـت كنـت قـد تعرفـت إلى ريـم، وأحببتهـا. وللمصادفـة كانـت أسـاء إحـدى صديقاتهـا. علمـت منهـا أن أسـاء تعلـم أن عمـرو يحبهـا. لكنهـا لا تبادلـه نفـس المشـاعر. كانـت تشـفق عليـه حينًـا، لكـن ملاحقتـه لهـا في كل مـكان توترهـا وتشـعرها بالحصـار والخجـل كـا أنهـا تلفـت الأنظـار إليهـا حتـى ضاقـت بـا يفعلـه.

ربما لو أخبرها بحبه منذ البداية لتغير الحال. لكن الأمر أصابها الآن بالضجر فلم تعد تطيق هذا الاهتمام، وصارت ملاحقته لها تزعجها، وإن أحجمت على التصريح له بهذا خشية أن تجرحه. كان الجميع في الجامعة يعلم بالقصة، وراح البعض يستمتع بمراقبتهما، ليرى كيف تؤول الأمور بينهما، وكان هذا ما زاد من حنقها وغضبها، وقد سئمت مراقبة الجميع وتتبع العيون لها.

واليوم تحدثني ريم أن أخبره بانزعاج أسماء منه، وأنها سئمت من أفعاله. كانت تطالبني أن أخبر عمرو برغبة أسماء في أن يكف عن ملاحقتها وأن ينساها ويبتعد عنها. إن أسماء تريده أن يعلم أنها لا تحبه، ولا تشعر أن هذا قد يحدث يومًا. ولهذا فلن يجدي نفعًا ما يقوم به.

وأشعر بالحيرة وأنا لا أدري كيف أخبره بأمر كهذا، إنني صديقه المقرب وأكثر من يعلم بشأنه وحاله، وخير من يعلم طبيعته وهشاشة نفسه. كنت أكثر من يعلم أنه لن يحتمل تلك الصدمة وقد باح لي بالكثير من الآمال التي يعقدها في حبه هذا.

وفي مقهى عزوز نجلس أنا وهو وخالد صديقنا الثالث ككل ليلة. نتبادل أنا وخالد شرب الشيشة والقهوة أو لعب النرد ويحمل عمرو بين راحتيه كوب الشاي ليرشفه ببطءٍ وعينه معلقة بشرفة بيت أسماء، عسى أن تظهر فيظفر منها بنظرة ما أو حتى يسمع صوتها.

و كان خالد في هذه اللحظة متعكر المزاج. ألتقطُ منه مبسم الشيشة، وابتسم ساخرًا وأنا أعلم ما يزعجه دون أن أشفق عليه. يرن هاتفه المحمول فيخرجه من جيبه، ويطالع شاشته المضيئة للحظة، قبل أن يزفر بحنقٍ وهو يغلق الهاتف دون أن يردّ، ويهتف محتجًا:

- اللعنة. ألا تشعر تلك اللعينة بالسأم؟

أقول بخبثٍ:

- هل هي سارة؟

ويجيب بحنقٍ:

- وهل هناك غيرها. لم يعد أمامها ما تفعله غير أن تزعجني.

أرغب في استثارته، فأميل نحوه وأنا أزفر بعض سحب الدخان من أنفي وفمي وأقول ببراءةٍ مزيَّفة:

- ألم تكن تحبها. أتذكر أنك أخبرتني بهذا كثيرًا؟!

وتتراقص شياطين الغضب في وجهه وقد أدرك مقصدي ويصيح فيَّ مستنكرًا:

- أحب من أيها الأحمق؟! أنا لا أحب أحدًا. أنت أكثر من يدرك هذا.

تروقني اللعبة فأواصل الحديث ببراءة مصطنعة:

- هل تعني أنك لا تحب سارة حقًّا؟ هذا غريب. إنني ما زلت أذكر كم سعيت طويلًا للفت انتباهها.

يزداد حنقه فيركل قدمي بطرف حذائه، ويلتقط مني مبسم الشيشة بعنفٍ، وأجاهد كيلا تتعالى ضحكاتي أمام عينيه المتسعتين الغاضبتين، وقد عاد الهاتف ليدق ثانية.

راح يسحب أنفاسًا طويلة من الدخان، ويكتمها في صدره للحظات ثم يطلقها بحنقٍ قبل أن يصيح ثانية في ضجر:

- تبًّا. لو كنت أدرك أنها ستكون بهذا الإلحاح كذبابِ الصيف اللعين ما فكرت فيها يوما ولشنقتُ نفسي قبل أن أتودَّدَ إليها.

وتخـرج أسـماء لشرفتهـا في تلـك اللحظـة فألحـظ الارتبـاك عـلى خلجـات عمـرو وكـوب الشـاي يرتجـف بـين يديـه فانـصرف ببـصري عنـه كـي لا يـزداد توتـرًا، وأنـا أقـول لخالـد:

- ولمـاذا لا تخبرهـا بالحقيقـة.. لمـا لا ترحمهـا مـن انتظـارك وتخبرهـا أنـك لا تحبهـا.

- ومَـن أخـبرك أننـي لم أفعـل. لقـد حدثتهـا مبـاشرة في الأمـر. صارحتهـا أننـي لا أشـعر بالميـل نحوهـا كـما أن ظـروفي المادية لا تسـمح لي بالإقـدام عـلى ارتبـاط مـا. أخبرتهـا أن العلاقـة مصيرهـا الفشـل لـو تمسـكنا بهـا، وأنـه مـن الأفضـل أن ننفصـل.

- وماذا كان جوابها؟

سعل للحظة قبل أن يجيب بملل:

- كالمعتـاد. راحـت تبكـي وهـي تقسـم إنهـا تحبنـي، وأنهـا سـتظل بجـواري دائـمًا، وسـوف تنتظـرني حتـى تتحسـن أمـوري الماديـة ولـو بعـد مائـة عـام. المهـم ألا نفـترق.

أثلجت صدري الكلمات فقلت في عبث:

- هذا يعني أنها لن تتركك وشأنك.

- هـذا مـا يبـدو، لكنـي لـن أقـف سـاكنًا، أعـرف كيـف أجعلهـا تكرهنـي بـل وتكـره نفسـها أيضًـا، سـوف أفعـل هـذا ولـن أرحمهـا.

ما زالت اللعبة تروقني، فأواصل استفزازه قائلًا:

- أخشـى أن تنجـح هـي في مسـعاها، وأراك يومًـا إلى جوارهـا في حفـل زفافـك.

- لن ترى هذا إلا في أحلامك.. أنت واهمٌ!

وأضحك وأواصل تدخين الشيشة، وأفكر في شأن خالد هذا الآخر.

كان ذئبًا بشريًا تخطى بالكاد العشرين من عمره، لكن ما فعله في عمره القصير لم يفعله من يملكون أضعاف عمره. كان صديقي منذ المرحلة الابتدائية ومنذ نعومة أظفاره بدا واضحًا شغفه بالنساء وأمورهن وتتبعهن.

كان يمتلك مقدرة مذهلة على الفوز باهتمام الفتيات والظفر بقلوبهن الصغيرة. لم يكن وسيمًا كنجوم السينما لو دار هذا بعقل أحدكم، لكنه كان ماهرًا في أن يبدو جذابًا. كما اهتم ببناء جسده فمارس الرياضة في سن مبكر وتناول المنشطات و«الأمينو أسيدز»، حتى امتلك جسدًا مفتولًا ضخمًا، وهو لم يتعد السادسة عشر من عمره فتن به الفتيات وألهب به أحلامهن الغامضة.

أضف إلى هذا امتلاكه لوقاحة بلا حدودٍ، وبرودٍ متناهٍ. لا يعرف التردد لو خطر بباله التودد إلى فتاة ما، ولا يسوءه أبدًا صدُّ فتاة له، أو سبُّها إياه، أو حتى الوقوع في شجارٍ من أجلها. تعرَّف بعشرات الفتيات، ونال من أغلبهن ما أمكنه الظفر به من ملامسة وعبث وغيره.. لم يكفه هذا فراحَ يبحث عن من هن أكبر منه عمرًا ومن يمكنهن أن يمنحه ما هو أكثر مما تمنحه المراهقات.

تعرف بالكثير من المتزوجات والمطلقات والأرامل. نال من كنوزهن الكثير، وأوشك غير مرة أن يضبطه أحدهم. علمت أنه في المرحلة الثانوية حظي باهتمام مدرسة التربية الموسيقية. لا أعلم

كيف أقنعها بحبه كما زعم ولا كيف وصل إلى مخدعها ليصير بديلًا لفترة غير قصيرة عن زوجها الذي يعمل بالخليج.

وفي الجامعة أصبح الأمر أيسر وأسهل. راح يتصيد الفتيات من حوله ويتسلى بإيقاعهن في حبائله وشباكه. لكنه كان ملولًا وما إن يظفر بفتاة وينال بعض عبيرها حتى يلفظها ويبحث عن أخرى. كان كالنحلة التي لا تستقر في مكان.

وكانت سارة هي الأخيرة. طالبة في الصف الثالث بقسم اللغة الألمانية في كلية الألسن. حسنها مبهر ودلالها لا يقاوم وحلاوتها تُسكر العقول. تتبعها كعادته فلم تبالِ به. أرسل إليها من صديقاته من يخبرنها بحبه وعشقه الكاذب فزجرتهم ولم تصدق. راح يتتبعها في كل مكان، ولا يبال بانصرافها عنه حتى وهنت مقاومتها يومًا، وقبِلَت أن تحدثه.

كانت هذه الفرصة التي تحينها كثيرًا، وكان مستعدًا لاقتناصها كذئب مُحَنَّكٍ.

يمكنني أن أتخيل ما قام به معها من حيل كي ينال حبها. كانت هي الأصعب فيمن عرفهن ولم ينالها بغير عناءٍ كبيرٍ، لكنها رغم ذلك كانت بلا خبرة في مسائل الغرام والحب ولهذا فما إن انهارت مقاومتها حتى سلب لُبَّها وظفر بقلبها. نال منها بعض العبير الذي تاق له يومًا كما اعتاد أن يفعل مع غيرها، وكما يحدث في كل مرة، راح الملل يتسرب إلى نفسه فأراد هجرها.

إنه في النهاية ذئب ملول، كما كانت هناك رشا، طالبة الفرقة الأولى في كلية العلوم التي رآها فأعجبته. راقه جسدها وترجرج

جسدها البض في مشيتها، فاشتهاها لنفسه. وقرر أن يغزل حولها خيوط العنكبوت اللزجة التي يجيد حياكتها. المفاجأة هنا أن رشا كانت إحدى قريبات سارة. ويبدو أنها قد أخبرت سارة بملاحقة خالد لها فتحفزت له الأخيرة. بدا واضحًا أن الفتاة الجديدة لن ينالها طالما سارة موجودة. لكنه كان لحوحًا كطفلٍ مُدلل، وظن أنه قد يصل إليها لو نجح في إبعاد سارة عنه.

لكن التخلص من سارة صار عسيرًا وقد أضحت هي من يلاحقه ويطارده. كانت تعشقه بصدق وأعلنت أنها لن تدعه لغيرها. في الواقع نجحت سارة في تكدير صفوه، وتعكير مزاجه، لكنني لم أشعر بالشفقة لحظة عليه. عليه أن يدفع الثمن في النهاية وقد سبَّب الألم للكثيرات، فما الضير في أن يكتوي بقبس من هذا الألم.

وللمرة المائة عاد هاتفه يرن دون أن يجيب، وحين بلغ منه الصبر نهايته أغلقه تمامًا، وهو يلعن اليوم الذي تعرف فيه بتلك الفتاة.

سوف يتخلص منها، سوف يذلها، سوف يجعلها تدفع الثمن. أقسم أمامي أن يفعل كل هذا بسارة، قبل أن ننصرف سويًا عن المكان، لكنني شعرت أنه لن ينجح.

في البيت أعود للوحدة.. أعود للذكريات التي أجترها ولا أسلوها أبدًا.. وهل يمكنني أن أفعل حتى لو شئت.. أعوام عشر قضيتها مع جدتي كانت كافية لأتغير للأبد. الطفل البريء اليتيم الذي يتغير عالمه بغتة بوفاة والديه ليجد نفسه في رعاية جدة قاسية تقوم بأمور مفزعة ليس بالأمر بالهين أبدًا.

أعاود التفكير في شأن صديقي. ورغمًا عني أطرد مشكلة خالد

من عقلي ولا أفكر إلا في عمرو. الفتى العاشق المسكين الذي لن ينعم يومًا بوصالٍ يُسعِدُه.

يتلاقى عقربا الساعة ويتوقفان سويًا عند الثانية عشر وتصدر الساعة دقاتها الرتيبة معلنة منتصف الليل ويرن الهاتف في نفس اللحظة معلنًا عن موعد السمر الليلي مع ريم. يأتي صوتها هادئًا مرهقًا محملًا بالوسن وتسألني:

- ألم تتحدث إلى عمرو بعد؟

- لا أعلم كيف أخبره بالأمر دون أن أسبب صدمة له.

- الجرح لا مفر منه، لكنه سبيل الشفاء الوحيد. صديقك يزداد تعلُّقًا بأسماء في كل لحظة، ومن الحمق أن ننتظر حتى يأتي اليوم الذي ترتبط فيه أسماء بآخر ويرى هذا بعينه. قد يقتله هذا بالفعل قهرًا وكمدًا.

أقول بحيرة.

- لا أدرى حقًّا ما عليَّ أن أفعله.

وتظل على صمتها وكأنها تشاركني حيرتي، لكن صوتها يعلو بغتة وكأنها توصلت للحل:

- وماذا عن جدتك، ألم تكن ماهرة في تلك الأمور؟

ويقفز قلبي بغتة في صدري، وقد أدركت ما تريده. لا بُدَّ أنها ترغب في أن أستعين بسحر جدتي لأقربهما سويًا. لكنني أفضِّل أن يموت صديقي من الحب كمدًا ولا أفعل هذا.. لن أقدِمَ على العبث بحجرتها وأغراضها الملعونة مرة أخرى. ففي كل مرة أستعين فيها بحيلة مِن حيلها ينتهي الأمر بكارثة. لقد تركت لي جدتي ميراثًا

مـن الديناميـت لا فائـدة منـه غـير الانفجـار والتدمـير.. العجيـب أن ريـم تؤمـن أن جـدتي ملكـت كل الحلـول.. المخيـف أن ريـم تراهـا بابـا نويـل الـذي يحمـل في جعبتـه السـحر والمعجـزات.

وأجيب باقتضاب:

- لقد ماتت جدتي، وذهبت معها معجزاتها إلى غير رجعة.

- لكنـك تملـك بعـض حيلهـا. لا تنكـر هـذا. لقـد أخبرتنـي مـن قبـل أنهـا علمتـك الكثـير قبـل موتهـا.

بالفعـل كنـت قـد أخبرتهـا بذلـك. وكان هـذا خطئًـا أدفـع ثمنـه طـوال الوقـت. مـا زال مـا حـدث مـع فريـدة ماثـلًا أمـام عقـلي.

- الحيـل التـي تعلمتهـا لـن تمنـع الألم عـن عمـرو حـين أخـبره بالحقيقـة.

- قـد تجـد تعويـذة أو شـيئًا مـا يقـرب بـين عمـرو وأسـماء. السـحرة كلهـم يفعلـون هـذا طـوال الوقـت.

- ربما يفعل السحرة هذا، لكنني لست بساحرٍ.

- لكـن جدتـك كانـت منهـم. فتـش في كتبهـا وأغراضهـا، ربـما عثـرت عـلى حجـاب مـا أو تعويـذة تفلـح في هـذا.

امتـازت ريـم بعنادهـا وتشـبثها الطفـولي بـما يخطـر ببالهـا بغتـة مـن أفـكار، وامتـزت أنـا بضعفـي أمـام حبهـا، وخسـارتي في أي معركـة أمامهـا. ولهـذا لم تنتـه تلـك المحادثـة إلا حـين وعدتهـا بالبحـث عـن حـلٍّ مـا.

نعـم، كان هنـاك حـلٌّ مـا.. ولـو لم يكـن هنـاك حجـابٌ يفلـح في تقريـب الأحبـة، فـماذا يفعـل الدجالـون والسـحرة في كل زمـان ومـكان.

إن الحب والكراهية والجمع بين المحبين والأزواج والتفريق بينهم هو عمل الدجالين والسحرة الحقيقي.

وفي القرآن كان هناك طالوت وجالوت. كانا ملكين وقد هبطا لتعليم السحر للبشر، وكان من سحرهم تعاويذ وطلاسم يفرقون بها بين المرء وزوجه.

«وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»

وكانت جدتي تجيد مثل تلك الأمور، وكانت تقوم بصناعة «العمل» والأحجبة لمن يلجأ إليها. فلم تكن مساعدة تلك المرأة التي هجرها زوجها من أجل أخرى بالشيء الصعب عليها. يكفيها أن تعطي المرأة البدينة حجابًا ملونًا تخرجه من جرابها الصوفي، ثم تخبرها كيف تستخدمه لتنتهي مشكلتها.

هل كانت تنجح؟

بالطبع هذا ما كان يحدث. كنت أعلم هذا حين تعود صاحبة الحجاب ثانية متهللة فرحة، وهي تشكر جدتي على صنيعها وقد أفلح، وهي مُحمَّلةٌ بالهدايا والأموال.

ولا شك لدي أنها ماهرة في مثل تلك الأمور حين أرى هذا العاشق النحيل العليل الذي أتى ليسأل جدتي أن تساعده وأن تقربه

بوسيلة ما الحبيبته التي لا تريده. فتعطيه جدتي حجابًا آخرَ، ليعود بعد حين ليقبل يديها، وربما قدميها وهو يبشرها أن حيلتها قد نجحت.

وعدت لحجرتها ثانية وقد أقسمت من قبل ألا أفعل. يرتجف بدني من بردها العجيب وأضيء المصباح. وكان كل شيء بها على حاله. الفراش النظيف، والأغراض المكومة في أحد الأركان والبساط الصوفي والخزانة المتلئة بأغراضها وكرتها البلورية والمشعل المعدني في منتصف الحجرة، والتماثيل المخيفة التي ترمقني محذرة من الاقتراب منها، وفوق كل هذا رائحة جدتي وأنفاسها التي أشعر بوجودهم الأثيري في فضاء الحجرة.

وأفتش الأغراض بحثًا عن الجراب الصوفي الذي كانت تحتفظ فيه بأحجبتها. لم يكن بين الأغراض المكومة ولا أسفل البساط ولا تحت الفراش أو بين طياته.

لم يبقَ أمامي غير الخزانة، ورحت أنقب بين أغراضها حتى وجدته. كان يحوي الكثير من الأحجبة الورقية المطوية على بعضها وكل منها مربوط بخيط حريري رفيع. نصفها كان يحمل اللون الأحمر والآخر كان يحمل لونًا أخضر، وقد غمرت النقوش والطلاسم الغامضة المدونة بالريشة والحبر الأسمر كل فراغ في سطحها.

وتوقفت في منتصف الحجرة حاملا الجراب المغلق عن أسراره، وأنا لا أدري أيها يفرق بين المحبين وأيهما يجمع.

وتحدث المنطق في رأسي. الأحمر حتمًا يفرق، والأخضر يجمع ويؤلف. الأحمر يعني الخطر والأخضر يعني الأمان. الأحمر يعني

الدمار والأخضر يعني الخضرة والأشجار والحياة. الأحمر يحمل التحذير والأخضر إشارة العبور والأمان.

وقررت أن أستعين بالأخضر. لكني وقبل أن أنصرف قفز لعقلي خالد ومعاناته مع سارة. أعلم أنه يستحق تلك المعاناة وما هو أكثر، لكنه رغم هذا صديقي. في النهاية هو لن يحب سارة أبدًا وقد ملّها هكذا، ولن تنال منه أبدًا ما يرضيها، ويومًا ما ستبوء بالفشل وخيبة الأمل فيه. لتبتعد عنه الآن قبل الغد، وليكن الفراق دون أن تشعر بل وبرغبتها الكاملة كما تفعل تلك الأحجبة.

ارتاحت نفسي للأمر فحملت حجابًا أحمرَ مع الأخضر وغادرت الحجرة. وفي اليوم التالي قابلتهما ووضعت الحجابين في كفيهما. كانا جيراني وجيران جدتي طوال عمرهما ويعرفان ما كانت تفعله، فلم يكن عسيرًا أن أقنعهما بفائدة الحجابين. في الواقع تقبل كل منهما حجابه بأمل، مسرورا، بل وأخبرني خالد أنه سيقبّل يدي وقدمي لو نجح الأمر.

كان على عمرو أن يذيب الحجاب في الماء وأن يلقي هذا الماء في طريقٍ تسير عليه أسماء. وكان الأمر ممكنًا فشرفته في مواجهة شُرفتها تمامًا، وفي الثالثة فجرًا حين صار العالم أجمعَهُ أسير عوالم النوم الخفية، بلل الحجاب في كوب الماء، وراقب الشارع المظلم الساكن، وحين اطمأن نثر الماء الذي في كوبه داخل شرفتها ثم أسرع عائدًا إلى حجرته وقلبه يدق بعنف.

أما خالد فكان أكثر جرأةً منه وأثبت جنانًا. اتصل بسارة في الصباح وأخبرها أنه يريد لقاءها. ذوب الحجاب في عصير ثم أعاد

تعبئته في عبوته البلاستيكية، ولما قابلها أعطاها العصير، ولم يطمئن إلا حين شربته كله. ابتسم بعدها بثقة بعدها وتنفس الصعداء.

هل أفلح الأمر حقًّا؟!

تمنيت هذا وتوقعته.

لكن الأمور لم تجرِ كما خططت له. ويبدو أنني قد اقترفت خطأً رهيبًا.

وعلمت هذا بعد يومين حين اتصل بي عمرو وحدَّثني بصوت شبه باك.

- انجدني، أنا في ورطة.

كدت أن أسأله ماذا هناك، لكن جرس الباب دق بإلحاحٍ، هرعت لأرى من هناك، وفور أن فتحت الباب وجدت أمامي خالد. بادرني بلكمة في صدري أذهلتني أكثر مما آلمتني، ثم صرخ في وجهي:

- ماذا فعلت بي أيها الأحمق. لقد صار الأمر كالجحيم. اللعنة عليك وعلى جدتك الساحرة اللعينة.

في هذه اللحظة أدركت أنني أخطأت، وعلمت حينها ما حدث.

بدأ الأمر حين خرج عمرو من باب عمارته في الصباح بعد يومين، وكانت أسماء في طريقها للكلية في نفس اللحظة. رأته فتجمدت في مكانها. اتسعت عيناها بغتةً، وفتحت فمها باتساعه. انتظر عمرو حينها أن تلقي بنفسها بين ذراعيه وقد ظنَّ أن الحجاب قد أتى مفعوله، لكنها صرخت بفزع حقيقي كمن رأى وحشًا، ثم تهاوت على الأرض وأجهشت بالبكاء.

تجمع الجيران والمارة حولها وبارتباك وفزع هرب عمرو من بينهم. وبعد ساعات في الجامعة كانت هناك. رآها فأراد أن يلمئن عليها. راقبها وتتبعها من بعيد كما اعتاد أن يفعل، لكنها لم تدعه هذه المرة. فما إن لمحته حتى احتقن وجهها الأبيض واندفعت نحوه بإصرار غريب أذهله فتجمد مكانه، وحين وصلته هوت على وجهه بصفعة شعرت بها الجامعة بأكملها.

تجمد الزمن برهة وظلَّل السكون كل من حولهما للحظة ترقُّبًا، قبل أن تبدأ أسماء صراخها وجنونها. راحت تضرب ما تصل إليه بكفها من جسده، وهي تصرخ في هيستيرية:

– لقد سئمت ما تقوم به، سئمت تتبعك إياي وملاحقتك لي في كل مكان كجروٍ حقير. هيًّا ابتعد عني أيها اللعين ودعني. لست أحبك ولن أفعل أبدًا. إنني أكرهك كالجحيم. ابتعد عني أو أقتلك. هل تفهم. ابتعد عني. ابتعد عني!!

كان الأمر جنونيًّا وعقدت الدهشة لسانه فلم يتكلم، وتيبس جسده فلم يتحرك، تجمد أمامها حتى انتهى جنونها وجاءت أمواج البكاء والانهيار. حينها أفاق من ذهوله فراح يعدو مبتعدًا هاربًا من المكان كله، وفي بيته راح يبكي.

حينها اتصل بي ليفهم ما يحدث.

وكان الأمر مع خالد فكان أكثر جنونًا. تناولت سارة العصير ثم انصرفت راضية باللقاء. وبعد يومين في الجامعة كانت بانتظاره. كان بين صديقاته حينها وفوجئ الجميع بها تنحني نحوه لتقبل خده وهي تهتف بهيام:

- إنني احبك. أحبك جدًا.

بدا الأمر عجائبي غير مألوف خاصة من سارة، وانتبه الجميع لما يحدث. تخلص خالد من ذهوله وحاول أن يصرخ في وجهها لكنها استمرت في حماقاتها فحاولت أن تحتضنه، دون أن تكف عن بثه كلمات الحب والغرام. وارتفعت الضحكات الساخرة من حولهما، ثم حاولت بعض الفتيات تخليصه من بين يديها وإبعادها عنه لكنها ظلت ملتصقة به، وهي تتشاجر مع الجميع في غضب، وتصرخ بشراسةٍ:

- اتركوني. إنني أحبه. لن أدعه يبتعد عني للحظة واحدة. إنني أحبه.

في النهاية خلَّص نفسه منها وراح يعدو أمامها هاربًا، لكنها لم تدعه بل راحت تعدو خلفه، كان المشهد طريفًا فلم ينقطع الضحك والسخرية، لكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد؛ فوجد خالد سارة تلاحقه حتى شارعه، وإلى عمارته، ثم توقفت أمام باب شقته.. وهناك راحت تطرقه بعنفٍ وهي تصرخ بحبه.. تجمع الجيران وحاولوا تهدئتها لكنها ظلت بمكانها تصرخ في وجوه الجميع أنها تحبه.

غضبت أمه في البداية من الفضيحة التي تدور أمام أعين الجيران، وحاولت أن تضربها وتبعدها عن المكان، لكنها عادت لتشفق عليها، وقد رأت دموعها الصادقة التي تشي بحبها. أما أبوه فلم يحتمل الأمر فهوى على وجهه بصفعات حملها غضبه وهو يصرخ فيه:

- فضحتنا يا «ابن الكلب» .

ولم يدرِ خالد ما يفعله فهرع إليَّ.

وهنا علمت كيف أخطأت. كان الحجاب الأحمر لتأجيج الحب

وليس للكراهية أو إهماده. وكان الأخضر لبث الفرقة والكراهية والبرود. ولهذا فقد تضاعفت معاناة كليهما. فأسماء ازدادت نفورًا من عمرو فكرهته كما لم تفعل من قبل. وسارة قد ازداد هيامها وعشقها لخالد فلم تطق فراقه ولم تتمكن من كتمانِ حبها.

ولحقنا عمرو في شقتي، وأجهش في البكاء وهو يرجوني:

- افعل شيئًا أرجوك. لا أريد أن تنفر أسماء مني هكذا، لم أكن أدري أنها تكرهني لتلك الدرجة، لن ألاحقها ثانية لكن افعل شيئًا يخفف نفورها هذا منّي، لا أريدها أن تصرخ في وجهي كلما رأتني.

أما خالد فكان أكثر شراسة وحِدَّة في حديثه وراح يهددني:

- انظر! لا يهمني كيف ستفعلها ولا كيف تبطل عمل حجابك اللعين هذا. لكني أنتظر حلًّا سريعًا يخلصني من تلك اللعينة، لن أعيش وهي تطاردني هكذا.. هذا جنون.. جنون حقيقي.

وتهدج صوته وقد استحال أقرب للتوسل وهو يكمل:

- أنت لا تدري ما يقال عني الآن. لقد اتهموني بالنيل من شرفها، ولهذا تلاحقني، لقد أخبرني أبي أنه سيزوجني بها رغمًا عني درءًا للفضيحة التي حدثت.. هل تصدق؟ سوف أتزوجها وأنا لا أطيقها. افعل شيئًا يا رجل أو أقتلك وأقتل جدتك الراحلة نفسها ثم أقتلها وأقتل نفسي.

وغادرا المكان بعد أن وعدتهما بالبحث عن الحل. رحت أفكر: هل يمكن عكس تأثير الحجابين. أعني: هل لو استعمل خالد الحجاب الأخضر وعمرو الحجاب الأحمر سينتهي الأمر وتعود الأمور لسابق عهدها. أشك في هذا! لقد لازمت جدتي لأعوام

وأعلـم أن تلـك الأمـور لا تسـير أبـدًا بمثـل تلـك البسـاطة. لـذا كان علـيَّ أن أفتـش عـن حـلٍّ آخـر.

وبـين طيـات الكتـب القديمـة رحـت أنقـب وأبحـث.. غرقـت في الكتابـات المتداخلـة المكتوبـة بالريشـة والحـبر الأحمـر والأسـود، والطلاسـم غـير المفهومـة والتعاويـذ الغامضـة.

وبعـد يـوم وليلـة عثـرت علـى الحـل: تعويـذة قويـة تكتـب علـى لـوح مـن العظـم وتدفـن في جـوف نهـر جـار لإبطـال تعويـذة النفـور. كانـت هـذه تصلـح لعمـرو فقمـت بتنفيذهـا بمسـاعدته وألقيناهـا في قلـب النيـل. وفي اليـوم التـالي أدركنـا أننـا قـد نجحنـا.

أمـا خالـد فـإن ضمـيري منعنـي أن أقـوم بالأمـر نفسـه معـه، لقـد حـان الوقـت ليدفـع الرجـل ثمـن بعـض أخطائـه، كـما أن الأمـر ليـس كارثـة حقيقيـة لهـذه الدرجـة. فسـارة تحبـه ومـا زالـت هـي نفسـها الفتـاة الجميلـة التـي يتمناهـا الكثـيرون، ولا أرى أن زواجـه بهـا خطـأ كبـيرًا. كـما أنهـا سـتكون مـن يكتـوي بعـار الفضيحـة وحدهـا لـو أبطلـت تأثـير الحجـاب عليهـا.

حدثتـه أننـي لا أجـد حـلًا لمشـكلته، وقـررت الاختفـاء لبعـض الوقـت مـن أمـام بصـره.

لا أدري مـاذا سـيؤول إليـه الأمـر معـه، لكننـي أدرك أنـه حتـمًا سـيتزوج سـارة رغـمًا عنـه..

هل يحدث هذا حقًّا؟

هذا ما ستجيب عليه الأيام

***

المثيل

لا أحد ينسى الصفعة الأنثوية الأولى.

يومها أتت لي بغتة بغير نذير أو تحذير. أتت من حيث لا أحتسب أو أظن أو أنتظر. كانت بيد طالما احتضنتها وهدهدتها وقبّلتها؟

كانت بأنامل ريم؟

حبيبتي ريم!

في الجامعة كانت في مكانها المعتاد بانتظار بدء المحاضرات. ظننتها في انتظاري فابتسمت وتقدمت إليها. همست باسمها، فانتفضت ثم التفتت إليَّ وعيناها متسعتان عن آخرهما. تجمدت بمكاني ذهولًا مما تبديه من دهشة وكأنها تراني للمرة الأولى، وشعرت أن بعض العيون من حولها قد انتبهت لما يدور بيننا، فقلت بإحراج:

- - ماذا هناك؟

زمت شفتيها وتقلص حاجباها وقالت:

- هذه وقاحة. أبعدَ ما فعلته بالأمس تأتيني الآن وكأن شيئًا لم يحدث.

وأعقبتها بالصفعة التي جمَّدَت الزمان والمكان وأتت بالصمت واجتذبت الذهول. لكنها لم تنتظر، وهرولت من أمامي مبتعدةً. تحسست اللطمة وانتبهت لمن يحملقون بي في فضول، فشعرت بالإحراج وأحسست بهول اللحظة وكان عليَّ أن أبحث عن الفرار.

غادرت الجامعة كلها وأنا لا أفهم.

ما كل هذا الغضب؟

ولماذا صفعتني؟

بل وما الذي فعلته كي تغضب هكذا؟

هل هو جنون عرضيٌّ ألمَّ بها، أم تراها وشاية صدقتها؟

عليَّ أن أفهم.

رحت حينها أفكر كالمحموم في تلك الألغاز التي تُحيط بي منذ البارحة، فلم تكن تلك الحادثة الأمر الغريب الوحيد الذي يحدث لي منذ يومين.

اتجهت للمقهى، وانتقيت مقعدًا قصيًّا، وطلبت الشاي والشيشة ورحت أفكر.

ماذا يحدث؟

بدأ كل شيء بالأمس. في البداية استيقظت وهبطت للشارع لأجد أحدَ الجيران يهنئني على المشاجرة. هنا ابتسمت ببلاهةٍ وأنا لا أفهم، وهمست لمحدثي مستوضحًا:

- أي مشاجرة تقصد؟

رمقني الرجل حينها بدهشةٍ أو غير تصديق كأنما أسخر منه ثم هتف:

- مشاجرتك مع كريم العبساوي. لقد كنت بطلًا يا رجل!

بالطبع لم أتشاجر مع كريم العبساوي، ولا أجرؤ على فِعلِها. بل لا أعلم من يقدر على مواجهة بلطجي مثله. كان يمتلك شراسة وعنفًا لا يرغب أحدٌ أبدًا في اختبارهما، لهذا لم أصدق ما يقوله هذا الجار عن تلك المشاجرة المزعومة، فابتعدت عنه بحيرة.

لكن الأمر تكرر ثانية، حين قال لي الحاج محمود الصواف صاحب كشك البقالة، وأنا أشتري منه بعض الخبز والجبن والكولا للإفطار، وصوته يعبق بالإعجاب:

- سلمت يداك يا أستاذ شريف. كان ذلك البلطجي بحاجة لهذا التأديب، لقد قمت بما يتمنى الجميع هنا القيام به.

ثم مال نحوي ناصحًا وهمس:

- لكن احترس يا شريف من ابن الحرام هذا ولا تطمئن له، ربما ترصَّدَك وطعنك من الخلف، لقد أهدرت كرامته تمامًا في المكان، وقد يفكر في الانتقام منك.

تناولت منه الجبن وما زلت لا أفهم ما هذا الهراء الذي يُحدِّثني عنه. هل يقصد مشاجرتي المزعومة مع كريم العبساوي. لست أنا حتمًا من قام بها. ولم أزعم يومًا أنني البطل الأثيني الشجاع، أو الفارس العربي المغوار الذي يقف أمام بلطجي مثل كريم هذا بل ويضربه.

هذا أمرٌ مستحيلٌ.

أذكر أنه قبل شهورٍ عاكس كريم إحدى الفتيات، تعقبها بإلحاحٍ، ولما أحنقها ملاحقته، التفتت نحوه وبصقت في وجهه، لكن الوقح لم يرتدع؛ فهوى على جسدها الضعيف بلكماته وركلاته، هنا أتى أخواها بالعِصيّ لتأديبه، كان يجلس بالمقهى حينها وحدث الشجار.. أخرج مطواته واندفع نحوهما، نال بعض العِصيّ وأصاب الاثنين إصابات بالغة في الوجه والأطراف والجسد فانسحبا من أمامه مقهورين.

إنه بلطجيٌّ لا يعرف الرحمة أو الحياء، لو عاش في الماضي لصار فتوة الحارة أو الزقاق أو الشارع الذي يرهب سكانه ويقتات من الإتاوات التي يُفرِضُها عليهم. ولو عاشَ في زمنٍ أبعَدَ لانتمى للشطار وقُطّاع الطرق.

كان في بداية العشرينيات من عمره، مات أبوه وهو صغيرٌ وتزوَّجَت أمه من سباك سكير لم يحتمله فطرده للشارع، عمل في كل مكان ممكن ليؤمِّن طعامه ومأواه. في المقهى والفرن وورشة الحداد وغيرهم، وحين شب طوقه بدأ في الانحراف.

تاجَرَ في الأقراص المخدِّرة والبانجو والحشيش، فجرى المال بين يديه وبدأ سلوكه الإجرامي في التبلور. كان يتشاجر طوال الوقت، ويفتعل المشاكل مع الجميع بلا مللٍ، حتى تحاشاه الكل تمامًا ورضخوا لسلطانه.

بل وحتى أنا لم أسلم من شرِّه. طالما تحرَّشَ بي وطالما أخبرني أنه يكرهني لأني ابن الساحرة الدجالة كما يزعم. بالطبع كنت أتحاشاه تمامًا كالجميع وأحتمل سخافاته ولا أتذمر، في الواقع كم تمنيت أن ألكمه

يومًا في أنفه، لكنني كنت أعي كذلك أمرًا مهمًا، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. ولهذا سجنت أمنيتي هذه بداخلي ولم أُفصِح عنها.

وأمام مدخل بيتي قابلت أشجان؛ جارتي المطلقة التي تسكن العقار الملاصق لبيتي، ترفع حاجبها الأيمن في احتفاء وتمط شفتيها وتهمس حين تصير بجواري:

- وحش بحق.

ثم تنهدت في إغراء وغمغمت:

- هكذا يكون الرجال!

احمرت أذناي من جرأتها هذه التي لم أعهدها، وهربت من أمامها وأنا لا أدري ما الذي تقوله ولماذا ترمقني بكل هذه الجرأة.

وفي المقهى كان خالد وعمرو بانتظاري استقبلاني بحفاوةِ استقبال الأبطال وأجلساني في المقدمة وهتف خالد:

- عاش البطل!!

وعقب عمرو:

- مرحبًا بالأسد.. اليوم أنا من سيدفع الحساب.

ينبض عقلي حيرةً فأقول:

- لا تمزحان أنتما الآخران. ماذا يحدث اليوم، وهل جن الجميع؟

يرمقانني للحظة بدهشة ثم يقول خالد بحذرٍ:

- لقد ضربت كريم العيساوي يا رجل، لم تضربه فقط، بل وأهدرت كرامته تمامًا.

- يبدو أنكما قد جننتما أنتما الآخران، أنا لم أفعل شيئًا من هذا.

ويردّ عمرو مؤكّدًا:

- بل فعلت يا شريف، كلنا شهد هذا في الصباح.

نبض عقلي بعنفٍ وفكرت. هل يتعاون الجميع في الشارع على إثارة جنوني. أنا لم أرَ كريم هذا الصباح ولا الصباح السابق، فكيف أضربه، أنا في الأساس لم أغادر الفراش هذا اليوم إلا بعد الظهر.

- أنتما تتوهمان. أقسم إنني لم أفعل.

لكن الحيرة التي تتواثب على وجهيهما حقيقية بالفعل، ويعود خالد للتحدث بعد حين:

- لسنا وحدنا اللذين رأيا ما حدث، الشارع كله يشهد، لقد سببت فضيحة لذلك البلطجي.

ربما صرت أقوم بأمور وأنساها.. ربما أُصبت ب (الزهايمر) مبكرًا.. حسنًا، كلي شغف لمعرفة كيف تغلبت على ذلك الفتوة الذي لم يقهر من قبل.

- إذا هلّا ذكّرني أحدكما بما جرى.

ويسحب خالد نفسًا عميقًا من الشيشة التي بيده ويطلقه ويقول مستسلمًا:

- أنت غريب هذا اليوم يا شريف، لكني سأخبرك.

على ناصية الشارع في الصباح توقف كريم، استند على الجدار بمرفقه وبعينين لزجتين محتقنتين من إثر العقاقير المخدرة التي يتجرعها راح يتابع المارة. لم يحيه أحد مطلقًا.. في الواقع تعلم الجميع

هـذا، ففـي تلـك اللحظـات التـي يصـير فيهـا عقلـه مثقـلًا بالمخـدرات أو السـكر فإنـه لا يجيـب تحيـة أحـد، وإن فعـلَ فكـي يفتعـل المشـاكل.

وكانـت تغريـد تسـير نحـو مدرسـتها الثانويـة برفقـة أبيهـا كـما يحدث كل يـوم.. يبـدو أنهـا راقتـه هـذه اللحظـة فـترك مكانـه ورسـم أسـوأ ابتسـامة ممكنـة عـلى وجهـه وتوقـف أمامهـا، فتوقـف الرجـل المسـن بقلـقٍ وتراجعـت ابنتـه خُطوتـين للخلـف بتوتـر، وقـال كريـم بلسـان ثقيـل:

- هـل ترافقهـا إلى المدرسـة يـا حـاج؟ حسـنًا، يمكنـك أن تسـتريح، سـوف أرافقهـا بـدلًا منـك إلى هنـاك.

شهقت الفتاة وتوتر الرجل العجوز، وتمتم في ضعفٍ:

- أشـكرك يـا بنـي. لكننـي سـوف أوصلهـا إلى هنـاك بنفسـي، لا داع لأن تتعب نفسـك.

- لكنـي أصر.. عُـد لـدارك يـا هـذا، وسـوف أعتنـي بهـا، أم تـراك تخـاف عليهـا منـي؟ هـا.. ألا تثـق فيَّ؟

قالهـا كريـم بتحـدٍّ فارتجـف الرجـل وهـو لا يـدري بـما يجيبـه. وحبـسَ كُلُّ مـن الشـارع أنفاسـهم في ترقـب وعجـز وخـوف، وكلهـم مشـفق في أعماقـه عـلى الرجـل ولا يتمنـى أن يكـون محلـه.

ومن الخلف هتفت أنا حينها كما أخبروني:

- الرجـل لم يسـألك خدماتـك يـا هـذا، فلـماذا تثقـل عليـه بلزوجتـك هـذه؟

هشـمت كلـماتي السـكون فارتفعـت الهمهـمات بغتـة والتـف كريـم نحـوي بابتسـامة تتأرجـح بـين السـخرية والدهشـة:

- ابـن السـاحرة يتحـدث؟ يبـدو أنـه خـارج وعيـه يـا رجـال.. اسـمعوا إنـه يسـبني!

رددت عليه بلا خوفٍ:

- دع الرجل وابنته يواصلان طريقهما.

- وماذا إن أصررت على مرافقتها، هل ستمنعني أيها الأبله.

وقـرن قولـه بالفعـل وامتـدت يـده نحـو كـف الفتـاة فقبضـت عليهـا، صرخـت الفتـاة وهـي تنكمـش فزعًـا وتحركـت أنـا، وكانـت أنفـه أول مـا وصلـت إليـه قبضتـي.

امتـلأ وجهـه بالـدم فحـاول أن يـصرخ في وجهـي ويـده تفتـش عـن مطواتـه في جيوبـه، لكننـي لم أمهلـه. الفتـاة والرجـل العجـوز تراجعـا وصنـع المـارة دائـرة حولنـا تحوطنـا ولا تسـمح لأيٍّ منـا بالفـرار، وتحـررت كفـي وقدمـي.. كنـت أضربـه بعنـفٍ وقسـوة كـما أخـبروني.

أضربـه بـرأسٍ مرفـوعٍ لا يعـرف الخـوف، كل مـن يعرفنـي في تلـك اللحظـة أنكـرني بشـدة وهـو لا يتخيـل أن أقاتـل هكـذا، أركلـه أسـفل سـاقيه فيعـوى وهـو ينحنـي نحـو الأرض، لأركلـه في وجهـه فيسـقط.. أسـبه طـوال الوقـت بينـما هـو يـصرخ ويتـألم.

لم يجـسر أحـد عـلى نجدتـه ولم أرحمـه.. يقولـون إني حطمـت لـه سـنتين.. يتحدثـون عـن عظـام صـدره المهشـمة.. يتحدثـون عـن قدمـي التـي وضعتهـا فـوق رأسـه فألصقتهـا بـالأرض لإذلالـه.

وفي النهاية وقد همدت مقاومته تمامًا صرخت في وجهه:

- في المـرة القادمـة سـوف أربطـك عـلى أحـد تلـك الأعمـدة ولـن يخلصـك منـي أحـدٌ.. هـل تفهـم؟!

وابتسم الناس من حولي وأشرقت وجوههم فرحة بما جرى فصفقوا من أجلي بل وأطلقت إحدى النساء زغرودة، لكنني تحركت نحو الجسد المكوم على الأرض وهو يعوي في ألم وانحنيت نحوه وقلت:

- بالمناسبة اسمي شريف وليس ابن الساحرة، هل فهمت أيها الوغد؟ في المرة القادمة التي تنعتني فيه ب «ابن الساحرة» لن أكتفي بتهشيم سنتين فقط، بل سأهشمها كلها.

ثم بصقت عليه في احتقار وانصرفت.

كان هذا ما قصه عليَّ صديقاي وأكداه. لكنني لا أصدق؛ فحتى لو أقسم الجميع أني فعلت فلن أصدق.. أنا أقوم بكل هذا! أنا أضرب بلطجيًا لم يقوَ عليه أحد من قبل هكذا! أنا أذله بل وأبصق عليه هكذا!

إنهم يقصون الأعاجيب

وانتبهت لأمرٍ خطيرٍ. لو كنت قد فعلت كل ما قالوه فلن يصمت كريم على إهانته هكذا.. حتمًا سينتقم.. حتمًا سيبحث عن الثأر.. وبلا شكٍّ سيقتلني.

مشت بطني وقد انتصف الليل فغادرتهما بوجهٍ غير الذي أتيت به. وكان منزلي مضاءً بأكمله حين دخلته. كان مظلمًا حين غادرته فمن أضاءَهُ؟ دلفت بحذرٍ ووصل إلى سمعي تأوهات خافتة من حجرة نومي. هناك من يتألم بها. تقدمت إليها متحفزا وأنا أفتش عن شيء ما أحتمي به وأنا أفكر من تراه داخلها..

هل يكون لصًا؟

وبالحجرة رأيت الجنونَ عينه. كانت جارتي أشجان راقدة فوق فراشي على جانبها الأيسر وقد أولتني ظهرها، كانت عارية تمامًا كما ولدَتْها أمها.. ملابسها بأكملها تناثرت على الأرض من حولي كأنما خلعتها في عجالة واكتفت ببعض الغطاء حول خصرها لم يفلح في إخفاء شيءٍ منها.

هذه المرة أصيب لساني بالخرس وعقلي بالشلل. ما الذي أتى بتلك المرأة إلى هنا.. بل وماذا تفعل في فراشي.. شعرت بي فالتفت برأس يزينه شعر فاحم ناعم مبعثر ورسمت ابتسامة عذبة على شفتيها الجميلتين وعاد حاجبها الأيمن ليرتفع وهي تقول بصوت مبحوح:

- لماذا ارتديت ملابسك ثانية. لقد وعدتني بمرة أخرى، ظننتك بالخارج تستعد.

لم أدرِ وقتها كيف أجيب، وأنا لا أفهم ما يحدث، ثم جلست على الفراش فسقط الغطاء على ساقيها كاشفًا عن نصفها العلوي الثائر وواصلت حديثها وهي تغمز بعينيها:

- أنت وحش يا شريف.. ذئب بري حقيقي.. لا أصدق أنك بمثل تلك البراعة، لقد أنهكتني كثيرًا.

هل تعتقد تلك المرأة أنني قد فعلت معها شيئًا ما.. ما هذا الجنون الذي يحدث لي، وهل يصر الجميع على إيداعي مستشفى الأمراض العقلية.

ويطول صمتي وحيرتي وعيناها معلقتان بي وفي النهاية تقطب حاجبيها وتغمغم:

- ما بك؟ هل تشعر بالإعياء؟

وأتحدث للمرة الأولى. أشير لملابسها وأنا أشيح ببصري عن جسدها العاري وأقول بصوت مخنوق:

- ارتدي ملابسك وغادري المكان.

- ماذا؟ هل جننت؟

- سأمهلك عشر دقائق لتفعلي. سوف أهبط أسفل المكان لأراقب الجيران حتى تغادري.. لا أريد أن يراك أحدٌ ما.

وأغادر الغرفة ويأتيني صوتُ حيرتها وهي تردِّد:

- ما الذي أصابك يا هذا؟ أنت مختل بلا شك.

انتظرتها خارج البيت كله وأنا أدعو الله ألا يشعر بها أحد، إنها الجارة المطلقة الفاتنة الساحرة الممزوجة ببعض العبث.. كنت أرى دومًا الرغبة في عينيها وأشعر بدعوتها الخفية المتوارية خلف أهدابها لأقتحم عالمها.

إنها بحر لو ألقيت نفسي في خضمه فسوف أغرق، إنها موج ثائر لا يعرف الرحمة وأنا لا أعرف فنون العوم.. ترى ما الذي أتى بها اليوم، وكيف دخلت المكان، وكيف واتتها الجرأة لتكون هكذا على فراشي؟؟؟

ألغاز .. ألغاز .. ألغاز !!

ومعها يزحف عقلي نحو الجنون بخطًى حثيثة. مشاجرة لم أفتعلها وجارة في المساء على فراشي ثم غضب ريم الآن وصفعها إياي دون سبب.

هل أقوم بأمورٍ لا أدركها؟

سؤال يلح على عقلي.

يقولـون إن مـرضى الفصـام يقومـون بأمـور مماثلـة، وأنهـم يعيشـون بشـخصيات عـدة في وقـتٍ واحـدٍ. تطفـو عـلى السـطح إحداهـا لبعـض الوقـت فتفعـل بعـض الأمـور الغريبـة، ثـم تتـوارى لتُفسِـح للشـخصية الأخـرى أن تعبِّرَ عـن نفسـها.

أهـذا مـا يجـري لي، وهـل هـذا يفسر تلـك الأفعـال العجيبـة التـي يزعـم الـكل أننـي قمـت بهـا ولا أدريهـا. وهـل أحمـل في أعماقـي مسـتر هايـد الخـاص بي؟

ويعـود رأسي لينبـض في إعيـاءٍ، وتتواصـل الأسـئلة وتختفـي الإجابـات ثـم أتذكـر ريـم، وأفكـر. عـليَّ أن أعـرف مـا أغضبهـا.

أعـود للكليـة ثانيـة.. أتجاهـل نظـرات مـن شـهدوا الواقعـة.. وأبحـث عنهـا فـلا أراهـا، ربـما كانـت بالمـدرج الآن. أتجـه إليـه وأدخلـه مـن البـاب الخلفـي، وأختـار مقعـدًا خاليًـا في الصـف الأخـير وأفتـش عنهـا بعينـي.

وفي الصـف الثالـث كانـت تجلـس. لم تكـن بمفردهـا بـل كان هنـاك مـن يجلـس بجوارهـا.

كان شابا!

واحتقـن وجهـي بالدمـاء الحـارة.. مَـن هـذا ولمـاذا يميـل نحوهـا هكـذا ولمـاذا تهمـس في أذنـه هكـذا.. هـل اسـتبدلتني بـه بتلـك السرعـة وهـل اختلقـت تلـك المشـاجرة لتبتعـد. لا أصـدق أن هـذا ممكـنٌ. الحيـاة ليسـت بمثـل تلـك القسـوة والأمـور لا تسـير بسرعـة هكـذا.

تنهشـني الغـيرة وأتمنـى لـو تنتهـي المحـاضرة بسرعـة لأرى مـن

يكون.. سوف أقتله! لقد اقتحم أرضي ومملكتي فلا كلام بعد هذا يقال.. لا شيء إلا القتال والقتل والتمزيق إربًا.

لكن مهلًا.. لماذا أشعر أني أعرفه، وهذا القميص اللبني المخطط ألا يشبه قميصي، وتلك الجلسة التي يجلسها ألا تشبه جلستي؟! أرتبك وأشعر أنني أنظر إلى صورةٍ لي بالمرآة من الخلف، وحين يلتفت نحوي في لحظة ما أدرك فزعًا الأمر المخيف.

إنه انا!!

هل أهذي، أم تراني جننت حقًّا؟

الدوار يفترسني ويضطرب قلبي من المواجهة وأنا لا أفهم كيف ستكون.. أعلم أنني أنا شريف فمن يكون هذا الآخر، ومن أين أتى؟

أغادر مكاني وأعود لداري وقدماي تترنحان وأفكر في تلك الطامة، مِن أين ظهر هذا الآخر؟ وهل كان هو من قاتل كريم وغلبَه؟ وهل كان هو من استضاف أشجان في الشقة وهل كان من أغضب ريم والآن صالحها.

أي جنون هذا الذي أحياه.

ويدق قلبي بعنفٍ حين أشعر بباب البيت وهو يفتح. أيكون ذاك مثيلي، لو كان هو فليقدِّم لي الأجوبة.. ليخبرني من هو ومن أين أتى وما الذي يريده مني.

أغادر الغرفة فأراه.. وبينما الذهول يغمرني يبتسم هو بسخرية قبل أن يقول متهكمًا:

- مَن أنت؟

ما الخدعة التي يمارسها هذا. إنه السؤال الخطأ. الصواب هو: من هو وليس من أنا.. وأبحث عن أحبالي الصوتية ثم أقول بصوت مخنوق:

- بل من أنت؟

يحتفظ بابتسامته وسخريته ويجلس على الكنبة التي طالما رقد عليها «إيزار»؛ مساعد جدتي الذي غادر المنزل حين ماتت، ويقول:

- تُكرر السؤال يا شريف ولا تجيب.

نتبادل النظرات وأتمالك نفسي ثم أقول:

- لقد قلتَها، أنا بالفعل شريف، فماذا عنك؟ من أنت، وأي لعبة تلك التي تقوم بها؟

هزَّ كتفيه وقال بهدوء:

- أنا أيضًا شريف، وهذا منزلي مثلما هو منزلك.

- مَن أنت يا هذا؟

أردد غاضبًا فيضحك ويميل نحوي ويجيب:

- ألا تمل من تكرار السؤال؟ انظر إليَّ وستعرف من أكون!

- بل عليك أن تمنحني الإجابة وسوف أكف عن السؤال.

- ولقد أخبرتك بالإجابة التي ترفض تصديقها.. أنا شريف.

يخنقني بروده الذي لا أمتلك برودًا مماثلًا له، وأتمالك نفسي بصعوبة.. صوته نفس صوتي.. حركاته مماثلة حركاتي.. وجسده تمامًا كجسدي.. إنه أنا وكأنما أنظر في المرآة.. أيكون توأمًا لي، أم

تـراه قرينـي مـن الجـان. وعـاد جسـدي ليرتجـف. أيكـون هـذا قرينـي حقًّـا. ولا أقـدر عـلى الاحتفـاظ بسـؤالي فألقيـه عليـه:

- هل أنت قريني؟

ويضحـك طويـلًا. يضحـك باسـتمتاع كأنـما تروقـه حـيرتي، وأنتظـر الإجابـة وأنـا أكتـم أنفـاسي.

- أي هـراء هـذا الـذي تقولـه يـا رجـل، وأي قريـن تدعيـه، أنـا بـشري مثلـك تمامًـا. انظـر!

قالهـا ومـدَّ ذراعـه نحـوي والتقـط سـكينًا مـن طبـق الفاكهـة المجـاور واخـترق بـه جلـد سـاعده فسـال الـدم، وقـال بعدهـا:

- هـل رأيـت؟ إنهـا دمائـي، وهـي بالمناسـبة نفـس دمائـك، هـل سـمعت يومًـا عـن قريـن تُـراق دمـاؤه.

- إذا ماذا تريد؟

- أريـد أن أحصـل عـلى فرصتـي في الحيـاة، أريـد أن أسـتمتع بهـا تمامًـا مثلـك، هنـاك أمـوال ورثتهـا عـن جـدتي، أعلـم أنـك لا تقربهـا، لكننـي سـأفعل.. أنـت تراهـا أمـولًا مشـبوهة.. أعـرف هـذا، فأنـا أمتلـك نفـس ذاكرتـك، لكنـي لا أراهـا كذلـك، الأمـوال طائلـة يـا عزيـزي شريـف وسـأفعل بهـا كل مـا حلمـت أنـت بـه. لا تنـسَ أن أحلامنـا حتـى أيـام مضـت كانـت واحـدة.

أرمقـه بحـيرة وأشـعر أنني أفتعـل محادثـة عبثيـة لا وجـود لهـا.. لقد جننـت حتـمًا. هـذا ال «شريـف» الآخـر لا وجـود لـه إلا في مخيلتـي.. إننـي حتـمًا أهـذي.

أغمـض عينـي وأفتحهـا، وأنـا أنتظـر أن يختفـي، لكنـه ظـل موجـودًا، بـل وضحـك وقـد أدرك مـا يجـول بـرأسي.. ونهـض نحـولي وكـور قبضتـه ثـم لكمنـي في صـدري قائـلًا بضحـك:

- هـذه لأؤكـد لـك أنـك في كامـل يقظتـك ولا تحلـم.. أنـا موجـود بالفعـل، فلـماذا يرفـض عقلـك أن يصـدِّق.. أنـا أمامـك فعـلًا يـا رجـل ولسـت وهمًـا.

تؤلمنـي قبضتـه ولا أفكـر في عراكـه.. أمـور كهـذه لا يفلـح معهـا العـراك. لقـد اعتـدت العجائـب والغرائـب حـين كانـت جـدتي حيَّـةً. فـلا ضيرَ مـن أن أتقبَّلَهـا الآن مـرة أخـرى.. ليكـن شريـف آخـر أتـى مـن العـدم، فـما الـذي علـيَّ أن أفعلـه الآن.

- حسنًا.. والآن ما الذي تريده مني؟

يرمقني للحظة ثم يجيب ببساطة:

- لا شيء، فقط دعني أحيا.

- وهل منعتُك؟

- لم تفهـم قصـدي يـا شريـف.. الحيـاة لـن تسـتوي ونحـن الاثنـان على ظهرهـا.. عـلى أحدنـا أن يتـوارى.

أقول بحذرٍ:

- ماذا تقصد؟

- يـا عزيـزي هنـاك مـا يمكـن أن نقتسـمه سويًّا، هنـاك مثـلًا المـال الـذي يمكـن اقتسـامه. يمكننـا الحيـاة سـويًا في هـذا البيـت.. يمكننـا المشـاركة في الملبـس والطعـام.. لكـن هنـاك أشـياء لا تقبـل تلـك القسـمة. هنـاك ريـم مثـلًا.. هـل..

وألقي بجسدي نحوه في تلك اللحظة وأنا لا أحتمل ما قد يقوله بعدها. كل شيء محتمل، لكن ريم لا.. لكنه كان أقوى مني حقًّا. دفعني ببساطة فتراجعت بعنفٍ وارتطمت بالجدار، وأكمل وهو يرمقني بتحفز:

- لا تحاول يا شريف، أنا أقوى منك كثيرًا كما أنني أدرك أنك لا تجيد القتال، لا تفكر في تلك الأساليب الهمجية، ودعنا نكمل حوارنا بتحضر وتعقل. اجلس يا عزيزي واهدأ، تلك الأمور لا تُحل بالعراك.

- ابتعد عن ريم.. سوف أقتلك لو قربتها.

- يا عزيزي إنها لي مثلما هي لك، أنا وأنت مثيلان.. نفس الجسد، نفس الحياة، ونفس الذاكرة. إنها ترانا شخصًا واحدًا بالفعل، ومن المستحيل أن تميزنا عن بعضنا البعض.. هل رأيت هذا بعينك اليوم؟ لقد رأيتك في المدرج، علمت أنك ستأتي وستكون هناك.. لو كنت مكانك لجلست في نفس المكان ودلفت المدرج من نفس المدخل؛ لقد كنت بالخلف حيث راقبتنا لبعض الوقت وحين أدركت من أكون هربت، أليس هذا ما حدث؟

أتمنى لو ألكمه، أن أزيحه عن الوجود كله.. هل يبغى هذا الوغد أن يسرق حياتي كلها؟ أتذكر صفعتها لي وأسأله: لماذا فعلَتْ؟ يبتسم ويجيب:

- لقد قبَّلتها. ألم يكن هذا ما تفكر فيه طوال الوقت.

- أيها الوغد.. كان عليها أن تقتلك حينها.

ويضحك ليستفزني. الوغد يتسم بالبرود والوقاحة، وهذا ما لا أملكه. إذا لسنا نفس الشخص كما يدعي.. ينتهي من ضحكه ويقول:

- أخبرتـك أنني أعلـم كل مـا تفكـر فيـه.. أعلـم كـم تشـتهي أشجان.. كـم مـرة حلمـت بهـا، وكـم مـرة تمنيتهـا ورحـت تتقلـب في الفـراش قبـل أن تنـام، الفتـاة حلـوة وهـي الأخـرى تريـدك، فلـماذا تعقـد الأمـر؟ لقـد كانـت هنـا بالأمـس. عرفـت أنـك قـد طردتهـا، لكننـي استمتعت بهـا كثيرًا قبلهـا.. إنهـا تسـتحق المخاطـرة والجـرأة يـا عزيـزي، يمكنـك أن تجـرب ولـن تنـدم، يمكننـي أن ادعوهـا مـن أجلـك اليـوم. ليـس عليـك أن تقـوم بـأي شيء، أنـا مـن سيحدثها وهـي لـن تعـرف أنـك مـن كنـت معهـا.

- لا شأن لك بي، أنا لا أريد شيئًا.

- بـل تريـد لكنـك تخـاف. تخـاف مـن الفضيحـة. تخـاف أن يـراك أحـد، وتخـاف أن تتعلـق بـك وتلاحقـك بعدهـا.

- لا شأن لك بما أخافه أو أريده.

- بـل الأمـر مـن شـأني، لقـد صرت شريـكًا في هـذه الحيـاة ومـن حقـي أن أبـدل قوانينهـا. لقـد منعـت نفسـك مـن أمـور أرغـب فيهـا بشـدة، بالمناسـبة كنـت أنـا مـن ضربَ كريـم.. ألم تتمـنَّ هـذا كثيرًا.

وهل أنكر أنني تمنيت هذا، أسأله السؤال الذي حيرني:

- ولكن كيف فعلت. كيف تغلبت عليه؟

- الأمـر بسيط. إنـه هـش ضعيـف لكنكـم تخافونـه، لقـد نجـح في صنـع وحـش داخلكـم اسـمه الخـوف منـه.. إنـه يتغـذى بخوفكـم منـه، ويسـتمد بأسـه مـن ضعفكـم. أنتـم مـن جعلتمـوه يتوحـش.. صدِّقنـي يـا شريـف، التغلـب عليـه لا يحتـاج لمـن هـو أقـوى. بـل يحتـاج لمـن هـو أكثر جـرأة. لقـد آلمتـه وأذللتـه، وتعمـدت هـذا، كـي لا يكـرر الأمـر ثانيـة.

- سوف ينتقم، وربما كنت أنا الضحية.

- لا تقلق يا رجل، مثل هذا البلطجي يدرك قيمة القوة ويحترم صاحبها ويهابه، لن يتعرض لك ثانية وقد جرب بأسك. فقط لا تُشعِره بالخوف منك.. حاوِل أن تُذكِّره بإشارات خفية بالمشاجرة وسوف يرتعد خوفًا منك.

نتبادل النظرات المتحدية للحظة.. إنه أكثر قوة مني بالفعل وأكثر جرأة كما أرى، لا أدري كيف ينتمي لي كما يدّعي، ولا أدرى ما الهدف من وجوده بل ومن أين أتى؟

تلك الأسئلة التي لا يجيبها ويتهرب من إجابتها تثير حيرتي وجنوني. لكن عليَّ أن أفهم، وماذا بعد الآن. أتنهَّد بصوتٍ مسموعٍ وأعود لأسأله:

- والآن ماذا؟

- ماذا ماذا؟

- هل تفكر في قتلي؟

- ولماذا أفعل؟ سوف تتلاشى من تلقاء نفسك.

- لست أفهم..

يتحرك حينها نحو الباب ويقول وهو يفتحه ليخرج:

- ستفهم بعد قليل.

ويغادر البيت تاركًا إياي لحيرتي ثانية، إنه ليس قريني كما اعتقدت، وليس شبحًا أو مسخًا. كما أعلم بلا ذَرَّة شك أنه ليس توأمي.

إذًا من يكون، ومن أين جاء؟؟ وتطفو على سطح عقلي جدتي ثانية. أشعر أن أصابعها مغموسة في هذا الأمر رغم موتها. كان خاطرًا سخيفًا لكنه كان مُلِحًّا مغريًا. يخبرني مثيلي أن أحدَنا عليه أن يتوارى ويذهب، ويلمِّح أنني من سوف يختفي وأنه لا حاجة به لقتلي.

هل يعني أنه سيدفعني للاكتئاب أو الجنون مثلا فأقدم على قتل نفسي أو الهروب. لو كان هذا ما يصبو إليه فلن يحدث. إنها حياتي وسوف أحارب للظفر بها.. لو كان على أحدنا أن يختفي فعليه أن يفعل.. إنه صورتي أنا.

أرقد على الفراش كما اعتدت أن أفعل حين أفكر، واستعيد بذاكرتي ما جرى في الأيام الأخيرة، حتمًا لا بُدَّ أن شيئًا ما قد جرى وأتي بهذا المثيل، لا أذكر أنني عبثت بكتب السحر القديمة لجدتي في الآونة الأخيرة، كما مضت حياتي مؤخرًا في إيقاعها الرتيب بلا جديدٍ يُذكَر.. فماذا جرى؟

لم يكن هناك غير «إيزار» الذي عاد فجأة.

يدق قلبي تحفُّزا فأهب من الفراش وأستعيد ما كان.. كان هذا منذ أسبوع مضى؛ عدت حينها من الجامعة فوجدته في المنزل جالسًا على الأريكة صامتًا كما كان دائمًا. كان قد اختفى تمامًا يوم أن ماتت جدتي. كان تابعها الأمين ومساعدها لأعوام كثيرة حتى ماتت، فذهب إلى حال سبيله. كنت قد نسيته تمامًا، لكنه الآن قد عاد. تجاوزت ذهولي وسألته:

- لماذا عدت ثانية، وكيف دخلت المنزل؟؟

كنت قد غيرت قفل الباب حين غادر المكان بعد وفاة جدتي، فكيف دخل البيت وهو لا يملك مفتاحه؟ انتظرت الإجابة لكنه استمر في صمته ونظرته الرتيبة الباردة. أتوتر وأتذكر بغضي القديم كله له، لن يتكرر الأمر ثانية، ولن أحيا تحت سقفٍ واحدٍ مع إيزار. لقد ذهبَت جدتي إلى غير عودة فلم يعد هناك متسعٌ له في هذا البيت.

لهذا حاولت أن أبدو حازمًا معه وأنا أقول:

- ما زلتُ بانتظار الإجابة، لماذا أنت هنا؟

لا يجيب كعادته، ويبدأ صوتي في الارتفاع:

- اسمع، لن يجدي صمتك أو غموضك الزائف هذا، أخبرني ماذا تريد أو غادر منزلي حالًا.

وظلَّ عمليًّا كما عهدته دومًا، رمقني للحظة بعينين ميتتين، ثم تحرك وغادر الشقة. وإن بقيت التساؤلات. لماذا أتى، وماذا كان يفعل بالبيت، ولماذا انصرف بسهولة هكذا؟

أستعيد ذكرياته في البيت فتعبث عشرات الفئران في صدري.. ما أفهمه أن ذلك المخيف لا يقوم بأي شيءٍ عبثًا. لقد كان هنا للقيام بمهمة ما. كان عليَّ أن أفهم.

يومها فتشت المكان كله كالمجنون بحثًا عن شيءٍ قد يكون قد خبأه في البيت، وحين انحيت أسفل فراشي وجدت تلك القنينة الزجاجية الزرقاء، تحسستها بحذرٍ، ثم احتضنتها بكفي فارتفعت حرارتها بغتة والتهب سطحها، فأفلتها بألم لتتهشم على الأرض وينبعث منها دخانٌ أزرقُ عجيبٌ سرعان ما تلاشى في الفراغ.

العجيب أن زجاج القنينة الزجاجي تلاشى هو الآخر فلم أجد أثرًا لشظاياها، علمت أن الأمر يتعلق بالسحر، وأن المتاعب بانتظاري.

أتذكر الآن هذا ويتوهج الشك في أعماقي نحو تلك القنينة اللعينة.. هل عاد إيزار ثانية ليدس تلك القنينة بما تحويه من سحر، وهل أتي المثيل عن طريقها؟

أغادر الشقة كي لا يذهب بي الجنون. ويرمقني جاري بعين ممتلئة بالذهول قبل أن يتحدث:

- ألم تخرج أمامي منذ قليل. أنا لم أغادر مكاني ولم أرك تعود فكيف دخلت منزلك دون أن أراك؟

أبتعد عنه دون أن أكترث بإجابته وأتجه نحو المقهى.. ومن هناك يصلني صوتي صاخبًا ضاحكًا مصحوبًا بضحكات أخرى أعرفها، كان اللعين يمارس حياتي بحيوية ويحتلها، لو ظهرت الآن فسيخلق الأمر الكثير من البلبلة والتساؤلات التي لا أرغب في مواجهتها.

أتقهقر للخلف وأغادر الشارع كله.. أذوب في زحام المارة وعقلي يجاهد بحثًا عن مخرج لمأساتي تلك. على ذلك المثيل أن يذهب. على أن أستعيد ما سلبه مني ذلك الوغد، لكن السؤال هو: كيف؟

ينتصف الليل وأعود لبيتي.. هل يكون هناك؟ الإجابة كانت حاضرة قبل أن أفتح باب المنزل.. آهات أشجان لا تتوقف من حجرتي حتى أشعر أن كل الجيران قد سمعتها.. أغلق الباب خلفي

وأتجمد خلفه مفكرًا فيما عليَّ أن أقوم به. ثم يخرج هو في تلك اللحظة من حجرتي عاريًا لا يرتدي غير سرواله الداخلي.. يبتسم ساخرًا ولا يبالي بنظراتي النارية الخانقة ويقترب مني قائلًا:

- ما رأيك لو تجرب أشجان؟ يمكنني أن أتوارى وأدعها لك، سوف تمنحك من الأسرار والسحر ما لن تصدقه.. ما تفعله تلك المرأة لا يصدق.

تملكني الغضب وصحت بصوت مكتوم كي لا تنتبه أشجان لما يدور بالخارج:

- لقد تجاوزت كل الحدود، سوف تفضحني بحماقتك هذه، قد يشعر الجيران بما تفعله من أمور مشينة.

- ومَن يبالي بالجيران. ليذهبوا إلى الجحيم.

- - لكنني أبالي. إنها حياتي تلك التي تُدمِّرها. لا تنسَ هذا.

- وهي حياتي أيضًا. هل نسيت أننا نتقاسمها الآن.

وقبل أن أنفجر في وجهه يأتي صوت أشجان من داخل الحجرة متسائلًا:

- هل معك أحد يا شريف؟

يرمقني بشماتة ويقول ساخرًا هامسًا:

- هيًا أجِبها، وإلا خرجت ورأتنا معًا.

أهمس ومن بين أسناني:

أيها الوغد!

ويضحك في سخرية، قبل أن يرفع صوته:

- إنني قادم يا فاتنتي، انتظريني.

تسـأله ألا يتأخَّـر، فيخبرهـا أنـه في طريقـه إليهـا، ومـا زال الشـلل والعجـز يعيقنـي عـن القيـام بـرد فعـل مـا. ويواصـل حديثـه:

- أقـترح أن تقـضي هـذه الليلـة في حجـرة جدتـك، حـاول أن تسـد أذنيـك كـي لا تسـمع مـا يـدور، إنهـا ليلـة صاخبـة يـا فتـى.

أتمنـى لـو ألكمـه في أنفـه، أتمنـى لـو أطـرده مـن المـكان كلـه مـع تلـك الجـارة المزعجـة، أتمنـى لـو أقتلـه وأنهـي وجـوده مـن حيـاتي، أتمنى في تلـك اللحظـة عـشرات الأشـياء العنيفـة وفي النهايـة لا أفعـل غـير مـا طالبنـي بـه.

ألـزم حجـرة جـدتي وأجلـس علـى البسـاط الـذي يكسـو أرضيتهـا وأحـاول أن أتجاهـل الجنـون الـذي يـدور بحجـرتي.

أشـعر بأنفـاس جـدتي مـن حـولي. أحـس بوجـودٍ أثـيريٍّ لهـا في المـكان، هـل يشـعر الموتـى بـما يـدور لنسـلهم، وهـل هـي شـامتة فيـما يـدور لي أم تراهـا تأسـى مـن أجـلي.

وتنسـل إلى أنفـي رائحـة غريبـة وقبـل أن أفكـر في منشـئها، أفـارق وعيـي، وفي العـوالم الخفيـة التـي تـلي بوابـات النـوم في أرض الأحـلام والكوابيـس كانـت جـدتي بانتظـاري، تجلـس علـى نفـس البسـاط الـذي بحجرتهـا، وبـين كفيهـا تتألـق بلورتهـا الزجاجيـة ومـن كل مـكان حولهـا تتفجـر سـحب الدخـان، وأتمتـم بيـأس:

- جدتي!

تلتفت ناحيتي وتجيب بهدوءٍ بوجهٍ تنعكس عليه الظلال الحمراء:

- ليس بعد الآن. هناك حفيد آخر يا فتى.

- بل أنا حفيدك.. انظري إلي، أنا شريف.

- تعلم أنه شريف هو الآخر، كلاكما واحدٌ، لكنه ينتمي لي أكثر منك، إنه من سوف يعيدني ثانية.

أنهار وأبكي.. أستجديها أن أفهم:

- بالله عليك أخبريني مَن هو؟ أخبريني ما الذي يحدث لي.

تنهض بتثاقل وتتجه نحوي، يختفي نصفها السفلي في الضباب والدخان الكثيف، وتتسع عيناها وتميل نحو أذني وتهمس:

- سوف تذهب ليعيش هو، لقد أبيتَ مساعدة جدتك لكنه سيفعل، هذا ما يحدث.. سوف تتلاشى يا فتى.

وتضحك في جنون وهي تردد «سوف تتلاشى، سوف تتلاشى».

وأسد أذني بكفي وأنتحب. وفي اللحظة التالية أفيق.. ما زلت بالحجرة راقدًا على البساط وفوق رأسي كان مثيلي بانتظاري، بادرني حين فتحت عيني قائلًا:

- حسنًا. أعتقد أنك تدرك الآن ما يحدث.

أشعر بوهنٍ شديدٍ وأقول بإحباط:

- لست أفهم شيئًا.

يعقد ذراعيه أمام صدره ويقول بهدوء:

- لقد زارتك جدتك في الحلم، وحتمًا قد أخبرتك بما يحدث لك.

أرمقه بخواء وخوف، وأشعر بوهن وضعف لم أحس به من قبل، تراودني رغبة قوية في الاستسلام والفناء، لا أرد فيستمر في حديثه:

- أنا مثيلُك حتى هذه اللحظة، مجرد جبلة خارجية من الإكتوبلازم.. وعاء فارغ يحوي نسخة من عقلك، وذاكرتك ومشاعرك وأحاسيسك وآمالك. إن وجودي مستمَدٌّ من وجودك. يمكنك أن تنعتني استنساخًا منك، لكنني لم آتِ عن طريق المعامل والمختبرات، أنا وليدُ شيءٍ أكثر قوة وأعظم شأنًا.. أنا وليد السحر القديم.. هل تدرك ما يمكن للسحر القديم أن يفعله.

يتضاعف الوهن والعجز بداخلي، فأكتفي بالتطلع إليه وما زلت بمكاني راقدًا على ظهري. أرى جدية في وجهه أحفظها جيدًا. ما زال يملك وجهي وخلجاتي وما زلت أذكر كيف أكون حين أكون جادًا. يواصل حديثه ويجيب سؤاله.

- لقد امتلك السحر قبسًا من قوى الكون الأزلية القديمة، ورغم هذا تجاهلتم تلك القوة الرهيبة واكتفيتم في أيامِكم هذه بالمعرفة والعِلم. تجلون العلماء وتطاردون السحرة العظام وتزدروهم حتى اندثروا واختفوا وتواروا. لكن البعض قاومَ وظلَّ يتناقل فنون الظلام وقواه من جيل لجيل. وكانت عائلتك لقرون طويلة إحدى تلك العائلات العظام. توارث أجدادك فنونه وحافظوا على إرثه ونقلوه دومًا لأبنائهم. لقد كانت جدتك آخر السحرة العظام، وطالما رغبت في نقل الإرث إليك لكنك رفضت، كان إرث العائلة ليزول للأبد طالما ظللتَ على عنادك، وكان على جدتك أن تقوم بشيءٍ ما.

أغالب ضعفي وأسأله:

- وكيف تفعل وهي ميتة؟

- لقد احتاطت للأمر منذ البداية. كان هناك إيزار يراقب. لقد مضى زمن ولم تفعل شيئًا. لم تتلقَّ إرثك ولم تحاول استعادة روح جدتك، كانت قنينة السحر الزرقاء في كف إيزار طوال الوقت.. ولهذا أتى ثانية، وضعها أسفل فراشك لتجدها، ومنها أتيتُ حاملًا قبسًا منك.

- لا أصدق أيًا مما تقوله!

يهز رأسه بأسف ويجيب:

- وهل يصنع هذا فارقًا. لقد انتهى أمرك. إنني هنا كي أتسلم الإرث بدلًا من.. كي أتعلم فنون الظلام ثانية وكي أورثها لأبنائي. إن روح جدتك ثائرة في انتظار أن تجهز لها وعاءً ماديًا للعودة لتمارس انتقامها. لقد أبيتَ القيام بكل هذا فجئتُ أنا.. ألا تتساءل لماذا أخبرك بكل هذا الآن؟

أبحث عن فضول بداخلي يدفعني للتساؤل فلا أجد. أشعر أنني قد انتهيت فما جدوى التساؤلات، لكنه يجيب:

- لأنك في طريقك للتلاشي، الأمر سوف ينتهي اليوم، إنه يومك الأخير يا شريف، صدقني لا أشعر بالسعادة لما يحدث، الأمر معقد ورغم كل شيء هناك ما يربطنا سويًا. لا أدري لماذا أشعر أنني أفقد أحدًا عزيزًا، لكن لا تقلق، سيمضي الأمر بهدوء لا مثيلَ له. لن يكون هناك ألمٌ ولن تشعر بشيء. الأمر يشبه النوم تمامًا. ستغمض عينيك ثم لا شيءَ بعدها.

يوليني ظهره ويتحرك بعدها نحو باب الغرفة، ثم يتوقف و يقول دون أن يلتفت:

- سوف أغادر الآن، لن أحتمل أن أشاهد التحول أثناء حدوثه، لن أعود قبل الغد، أتمنى لك حياة أسعد في العالم الآخر.. وداعًا يا شريف.

ويختفي من أمام بصري. ما زلت أشعر بإعياء لا حدودَ له وما زالت الرغبة في الاستسلام لما يحدث تتأجج في أعماقي. هناك هاتف في أعماقي يحدثني أن مثيلي لا يكذب. إن الساعات القادمة لي هي الأخيرة لي في هذا العالم.

لكن لماذا أشعر بكل هذا الخواء. لماذا لا أحزن على حالي، ولماذا أحس بكل هذا اليأس؟؟ ويمضي الوقت ويدق الهاتف، كانت النغمة المخصصة لريم.

أتذكرها بغتة وأتذكر كيف مالت على كتف مثيلي وكيف همس في أذنها في المدرج. ينبعث الغضب في أحشائي ثانية وأنا أدرك أنها ستكون له، أتحامل على نفسي وأتجه للهاتف لكني أصل متأخرًا وقد كف عن رنينه. أنتبه إلى المرآة وعلى سطحها أكتشف أن التحول قد بدأ. بدا جسدي خلالها شفافًا في تلك اللحظة كالزجاج وقد ظهر من خلاله ما خلفه. أرفع كفي أمام بصري فأدرك أنها صارت كفًا شبحيه تُظهِر ما خلفها.

وأعود لأحس بالرعب. لا أخشى الموت في الواقع لكنني لا أرغب في أن يفوز بريم أحدٌ ما غيري حتى لو كان نسخة مني.

لن أستسلم وسوف أبحث عن حل ما.

وأفكر كالمجنون ماذا أفعل.. وسطع في عقلي ذكرى مخطوطات

جـدتي القديمـة.. تلـك المخطوطـات التـي تحتفـظ بهـا في جـوفِ الفـراش والمصنوعـة مـن ورقٍ سـميكٍ مدبـوغٍ.

في يـومٍ مـن الأيـام حدثتنـي جـدتي عنـه وقالـت أنـه أثمـن مـا تملُكُه. في يـومٍ مـن الأيـام حاولـت إحـدى تابعتهـا سرقـة تلـك المخطوطـات وقـد فشـلَتْ حينهـا ونالـت عقابًـا قاسـيًا. في يـومٍ مـن الأيـام أخبرتنـي جـدتي أن أفتـش في تلـك المخطوطـات لـو داهمنـي شَرٌّ لا قبـل لي بـه. هـل أخبرتنـي جـدتي بهـذا كـي تجهـزني لمـا يحـدث الآن. وهـل هنـاك شَرٌّ أقسـى ممـا يحـدث لي في هـذه اللحظـة؟

أعـدو كالمجنـون نحـو حجرتهـا. أقلِّـب حشـية الفـراش وأفتـش عن المخطوطـات حتـى أعثـر عليهـا. ألقيهـا عـلى البسـاط وأفضهـا وأبـدأ البحـث عـن معجـزة في اللفافـات تنقـذني. الوقـت يمـضي بجنـون، والمخطوطـات كثيرة ولم أصـل بعـد للمخطوطـة التـي بهـا شـفائي. كانـت هنـاك عـشرات التعاويـذ الرهيبـة والطلاسـم التي تفعـل أمـورًا مذهلـةً لا تُصـدَّق. لكـن مـا قيمـة كل هـذا وأنـا في طريقـي للفنـاء.

تنفَـذْ كفـي خـلال اللفافـات فـأُدرك أننـي أفقـد كيـاني المـادي وأن النهايـة قـد دنَـتْ بشـدةٍ. أحـاول التركيـز في بحثـي وبصعوبـة أفـض اللفافـات الباقيـة وكالمجنـون أقـرأ مـا بهـا.

لا شيء.. لا شيء.. لا شيء..

إنهـا النهايـة إذا.. لم يبـقَ غـير مخطوطـة أخيرة لكـن اليـأس قـد تملَّكَنـي فغالبـت نفسي بشـدة كـي أقـرأ مـا بهـا.

وكانـت الأخـيرة هـي بغيتـي.. أقرأهـا لأكتشـف أنهـا رسـالة مـن جـدتي.

«لقد ورطت نفسك بعنادك أيها الشقي فيما يجرى لك. وطالما تقرأني فأنت في سبيلك للفناء كما خططت، ومثيلك الذي صنعته يستعد للحلول بدلًا منك في حياتك. رسالتي هذه وضعَها إيزار بين المخطوطات في نفسِ الوقت الذي وضع فيها القنينة التي أتت بالمثيل. وهذا يعني أنك ما زلت ترفض إرث أجدادك، وأن عليك أن تفسح المكان لغيرك، لكنني رغم كل شيء جدتك. ومهما بلغت القسوة في نفسي فعليَّ أن أحميك للنهاية وأن أهبك فرصة أخرى.

لكن قبل أن تحصل عليها، عليك أن تفهم أنك في المقابل سوف تعيد قراءة تلك المخطوطات ثانية وسوف تتعلم أسرارها. سوف تبحث عن وسيلة لاستعادة روحي ثانية. عليك أن تقيم عهدًا بأن تقوم بكل ما ذكرته. أعلم أنك ستقبل لأن الرفض يعني الموت، فهل تفضّل الموت على القيام بما أطالبك به؟ لو كنتَ ذكيًا فلن تفعل. تذكر أن الموتى لا يستمعون بأي شيء، وإياك أن تنسى أنه لا يمكنك خداعي. لو تخاذلتَ ثانية فسوف أصل إليك مثل هذه المرة، وسوف أقضي عليك دون أن أترك لك فرصةً للنجاة.

والآن لأخبرك بالحلِّ، إنه بقربك، أسفل الفراش، قنينة زرقاء تماثل تلك التي وجدتها أسف فراشك من قبل.. كل ما عليك أن تجدها وأن تهشمها كالأولى.. بعدها ستنتهي متاعبك.

أتمنى أن تعثر على رسالتي هذه في الوقت المناسب فلا أحب أن أعود فلا أجدك.. إلى اللقاء.

تنتهي رسالتها وتفتش عيني أسفل الفراش عن القنينة..

بالفعل كانت هناك. أجُرُّ ذراعي الواهن نحوها وأحاول أن أقبض عليها، تخترقها أناملي دون أن تقبض عليها، أعاود الكرة فلا أمسك شيئًا. لقد صرت كالشبح.. أُكرِّر المحاولة بلا جدوى. أشعر باليأس والقهر والحل بين أناملي دون أن أقدر على تنفيذه.. يا إلهي ساعدني.. إنها فرصتي الأخيرة.

وأستجمع قواي وأنجح هذه المرة. أقبض على القنينة الزجاجية وأرفعها بصعوبة وألقيها ثانية. تتهشم هذه المرة ومن جوفها ينبعث الدخان الأزرق.

أشعر بالإعياء بغتة ولا أشعر بشيءٍ بعدها.

أفقت بعد ساعات. ومنذ اللحظة الأولى أدرك أنني قد عدت ثانية. استعاد جسدي كيانه المادي واستعدت قواي. اللفافات ما زالت بجواري لكن رسالة جدتي لم تكن بينهم. لقد ذهبت إلى حيث لا أدري.

هل انتهى الأمر حقًّا.

أنتبه لهاتفي وأقرأ رسالة قصيرة من ريم.

«كيف اختفيت من أمامي هكذا، لقد شعرت بالرعب، هل تمارس إحدى ألاعيب جدتك معي؟

إذًا فقد نجح الأمر وتلاشى مثيلي. هذا يعني أن عليَّ أن أدرس المخطوطات القديمة كما طالبتني جدتي، لكن عقلي رغم كل ما حدث يأبى تنفيذ وصيتها هذه.

لكنها هددتني أن تعيد الكرة ثانية لو نكثت بعهدي هذه المرة.

أشعر بالرعب والسؤال يراود عقلي طوال الوقت.

هل تفعلُها جدتي ثانية.

وهل تبعث مثيلًا آخرَ لي.

لا أدري!.

***

حكايات شتوية

(1)

مرة أخرى هو المساء البارد والمطر الكثيف والسماء المظلمة الملبدة بالغيوم والريح التي تزأر، والوحدة القاتلة، في ليلةٍ شتويةٍ طويلةٍ لا نهاية لها كما يبدو.

البرد وحش بَريٌّ لا يعرف الرحمة، ينهش العظام فتنتفض وتئن، وفي كفّي كان كوب الشاي الثقيل الساخن، يقاوم كل هذا ويبث في يدي دفئًا مُحبَّبًا يذيب الدماء المتجمدة في العروق.

ومن المذياع يشق السكون والوحدة صوتَ أم كلثوم في أغنية قديمة، تُحيي حنينًا وشجنًا لماضٍ ولَّى ولن يعود.

«يا حبيبي..

الليل وسماه..

نجومه وقمره..

قمره وسهره..

وانت وأنا..

يا حبيبي أنا..»

الشوارع الفارغة والبيوت المغلقة على سكانها الذين يحاربون هذا المساء شديد البرودة بالنوم. بينما يلفح الهواء القارص وجهي بلا هوادة، وهناك تلك النشوة التي يحملها الشتاء إلى قلبي، ومن وراء كل هذا، حديث الذكريات التي تهب من رقادها لتبعث في نفسي من جديد.

ينتهي كوب الشاي فأفكر في إعداد آخر. وتمط أم كلثوم صوتها في مقطع من آخر من رائعتها

«والهوى..

آه منه الهوى..

آه..

منه الهوى..

سهران الهوا..»

فأتمنى لو أذوب في شدوها وأن أهتف مع جمهورها:

« الله.. الله يا ست»

لكني قلبي المثقل بالهموم والذكريات لا يدعني لأفعل. أغادر الشرفة وعيناي معلقتان بالسماء المكفهرة الملبدة بالغيوم وأجلس على طرف فراشي. لا رغبة بي للمذاكرة في هذه الليلة وحديث الذكريات والأشجان يتردد في داخلي. في ليلة شتوية كهذه، وقبل

أعوام عشر أتيت إلى هنا للمرة الأولى. طفل يتيم فارقته أمه حين مولده ولحقها أبوه قبل أن يتم العاشرة من عمره. طفل وحيد مذعور تائه وجد نفسه بغتة في رعاية عجوز مخيفة لا يعرفها، وقد أخبروه حينها أنها جدته.

أتذكر تلك الليلة كأنها البارحة. تقبض واحدة من جيراننا القدامى على كفّي الصغير وأنا بجوارها مطأطأ الرأس لا أرى أبعد من قدمي وتطرق باب جدتي وتنتظر. أرتعش للحظة فتهمس لي:

- لا تخشَ شيئًا، إنها جدتك.

لكني لا أعلم من تلك التي تدعى جدتي والتي لم أرها قبل ذلك، بل ولماذا لم يحدثني أبي عنها أبدًا؟

من أين أتت هكذا بغتة، وأين غابت كل تلك الأعوام التي عشتها؟

ثم ظهرت جدتي أمام الباب. تبصر عيناي قدمين رفيعتين في خُفٍّ ورديٍّ بإصبع واحد وقد استطالت أظفارها بشدة فبدت كالمخالب. تشير إلى جارتنا القديمة التي نسيت اسمها وتقول باقتضاب:

- هذا شريف، ابن ابنك.

وأرفع عنقي فأرى الوجه العجوز العابس، الممتلئ عن آخره بالتجاعيد، وأشعر بالرعب من العينين. لم أتبينهما تمامًا في تلك المرة. مجرد فجوتين في الوجه، مظلمتين تمامًا، وتحيطهما هالات كثيفة في سواد لا يقل عن العينين. وتهز جدتي رأسها وتلتقط كفي بأصابع نحيلة باردة وتقول لي بصوتٍ خالٍ تمامًا من العاطفة:

- مرحبًا يا شريف. سوف تُقيم معي الآن. هل أخبروك بهذا؟

وتغادر الجارة المكان وتغلق جدتي الباب خلفنا ثم تنحني نحوي وتبتسم عن فم فقدَ أغلب أسنانه وتغمغم بصوت مبحوح أرعبني رغم ابتسامتها:

- أنتظر أن تكون طفلًا مطيعًا وغير مزعج. لا أعلم كيف كانت حياتك قبل اليوم. لكن الحياة هنا تختلف. هناك قواعد عليك أن تلتزم بها، أهمها ألا تتدخل فيما لا يعنيك. وألا تكثر التساؤلات. إياك وحجرتي. لو دخلتها دون إذن فهناك عقاب لن يسرك. التزم بالقواعد ليمضي كل شيء بيُسر.

وأومئ برأسي دون أن أرد. وتُواصِل تعريفي بالمكان. هذا هو المطبخ. وذاك هو الحمَّام وتلك غرفة الطعام وأما التي في نهاية الرواق فهي حجرتي. عليَّ أن ألزمها طوال الوقت. لا تلفزيون ها هنا ولا ألعاب كما حوت حجرتي القديمة. الأشياء الوحيدة التي تشبه الألعاب التي أعرفها هي تلك الدمى المخيفة التي بحجرتها أو التماثيل المرعبة المعلَّقة بالجدران.

قادتني إلى حجرتي. وضعت ملابسي في دولاب صغير وسألتني إن كنتُ جائعًا. في الحقيقة كنت جائعًا بشدة، لكنني كنت خائفًا. فتمتمتُ بصوتٍ خافتٍ لا أدري كيف أمكنَها أن تسمعه:

-.كلا. أريد أن أنام.

تركتني حينها وأطفأت النور، ثم أغلقت الباب، كان هناك الطقس البارد وليل الشتاء الطويل، والخوف من الظلام وأنا

الذي لم أنَم يومًا إلا والمصباح مضاءٌ، كل هذا أخذ يعصف بي. راح جسدي يرتعد. وبعد هنيهة رحت أبكي وأنتحب.

راحت مثانتي تتقلص والبول يحتشد داخلها. أرتعش ولا أقوى على مغادرة الفراش وأحاول أن أنادي جدتي فلا تطاوعني حنجرتي ولا يخرج الصوت من فمي. العاصفة خارج النافذة تزأر بتوحش والوحشة تلتهم روحي الصغيرة وخيالاتي ورعبي يعصفان بنفسي وتؤلمني مثانتي ودون أن أدري أبلل فراشي.

لا أفكر في تغيير ملابسي رغم كل البلل الذي يحيط بي في الفراش وبعد حين ألوذ بالنوم. وفي الصباح تأتيني ويأتي العقاب والغضب. تصرخ وهي تجرّدني من ملابسي المبتلة أن الرجال لا يبللون الفراش. ثم تضرب مؤخرتي العارية بكفين قاسيتين ولا تبالي بوجعي قبل أن تلبسني ملابس أخرى نظيفة وتقول لي:

- لا طعام لك اليوم. حين يقرصك ألم الجوع ستتعلم كيف تتحكم في مثانتك.

وتغلق حجرتي من خلفي لأقضي أسوأ يومٍ عشته في حياتي. ينهش الجوع أحشائي، ويمنعني الخوف منها وخشية عقابها أن أبوح لها بما أحسه. رحت أتلوى على الأرض والفراش وأمعائي تتقلص وتعوي طلبا للقوت طوال اليوم دون أن ترحمني جدتي.

كان يومًا عسيرًا ظننته الأسوأ في عمري كله، لكنني كنت صغيرًا للغاية لأدرك أن الأسوأ لم يأتِ بعد.

لم أغادر الشقة لشهرٍ كاملٍ. حاولت خلالها مدفوعًا بفضول

طفولي استكشاف عوالم جدتي الغريبة، لكنها كانت تراقبني وقطها الأسود المخيف وخادمها الضخم طوال الوقت.

وفي اليوم الذي غادرت الشقة للمرة الأولى أدركت أن الحياة ها هنا مختلفة في كل شيء عما عهدته. أرى طفلة الجيران التي في مثل عمري تقريبًا. أشعر بنشوة وألفة وأنا أرى كائنًا صغيرًا ينتمي إلى عالمي. أبتسم لها وأتقدم نحوها بخجل لأشاركها اللعب.

نتعارف في بساطة. أنا طفل وهي طفلة فلا تعقيد.

نلهو على الدرج وترتفع ضحكاتنا الصاخبة حتى تأتي أمها. تسألني بابتسامة مشرقة وكانت لا تعرفني:

- من أنت يا حبيبي؟

أجيب بخجل وأنا أشير لشقة جدتي:

- أنا شريف.. وهذا بيت جدتي.

يكفهر وجهها مرة واحدة وتجذب الطفلة الحائرة المضطربة من ذراعها وتقول بصوت مغاير:

- هذا يكفي يا فتى.. ابتعد عن طفلتي ولا تقربها ثانية.

وتختفي والطفلة في لحظة، ولا زلتُ بمكاني لا أفهم شيئًا ولا أدرى ما الخطأ الذي ارتكبته. كنت صغيرًا لأدرك أنها تراني حفيد الساحرة التي يخافها الجميع ويهابونها، بل ويكرهونها.

ومع الوقت أدرك أن ما فعلته تلك الجارة يتكرر طوال الوقت. يُعاملني صبي الفران بتحفظ. لا يبتسم البقال العجوز لي حين أشترى الحلوى منه كما يفعل مع أقراني. أحاول أن أبتسم في

الوجـوه لألقـى العبـوس، أحـاول المسـاعدة لـو اسـتطعت فـلا ينالنـي غـير النفـور، حتـى تعـودت النظـرات المسـتنكرة الغاضبـة الكارهـة التـي يرمينـي بهـا كل مـن حـولي.

كنـت كوبـاء مُعدٍ يتحاشـاه الجميـع. وحـين ضقـت بتلـك العزلـة المريعـة سـألت جـدتي عـن سـببها. مـا الـذي قارفتـه ليعاملـوني هكـذا. تجيبنـي بهـدوءٍ وكأنهـا تتوقـع السـؤال:

- لأننـا أفضـل منهـم. لأننـا الأقـوى، إنهـم يغـارون منـك ويتمنـون لـو كانـوا مكانـك.

لكننـي لسـت أفهـم أي تميـز هـذا الـذي تدعيـه، والـكل يكـن الكراهيـة لي ولهـا أو يعلنهـا.

وفي المدرسـة يـمارس معـي الأطفـال ألعـاب القسـوة المريعـة، فيحبسـونني في خانـة الطفـل المنبـوذ، ويشـكلون ضـدي العصابـات الصغـيرة، ويتنافسـون أيهـم يجعـل حيـاتي أكثـر جحيـمًا. في كل يـوم مشـاجرة وفي كل يـوم أعـود لمنـزلي محمَّـلًا بالمزيـد مـن الجـروح والخـدوش والكدمـات.

اعتـاد الجميـع منـاداتي بابـن السـاحرة، سـاخرين منّـي ومـن جـدتي، في البدايـة كنـت أثـور لكرامتـي وأنـا لا أفهـم لمـاذا يفعلـون هـذا بي، فأتشـاجر معهـم، لكـن تكاتفهـم ضـدي، ومـا كان يصيبنـي حينهـا مـن جـروح وكدمـات ودمـاء أقنعـاني بالخضـوع. أقنعـاني أن أتقبـل تلـك التحرشـات صاغـرًا عاجـزًا.

تعلمـت الصمـت وأتقنـت العزلـة والوحـدة وأنشـأت مـن حـولي

شرنقة كثيفة من الكراهية للعالم كله. كان صمتي في البداية إجبارًا وخوفًا، وصار بعد ذلك نفورًا وملجئًا من الكل.

تسألني عن المدرسين والأساتذة؟

سيدهشك أن أخبرك أن أيهم لم يتحرك يومًا لنجدتي. بل ورأيت السعادة على وجوه بعضهم حين يتكالب الأطفال عليَّ ويضربوني. واكتفى الآخرون بتجاهل ما يدور من حولهم وكأن من يُهان حيوان أجرب لا شأن له. ويوم سقطت من حاجز السلم المرتفع تأكدت أنه لا أحد هنا يرغب في وجودي أو يكترث بألمي. لا أذكر إن كنت قد فقدت توازني يومًا فسقطت، أم أن هناك من دفعني من أعلى الدرج فوقعت.

مازلت أذكر الألم الشديد والنور يخبو من بصري ثم يعود. أتذكر صراخي ورعبي وأنا أرى قدمي وقد تدلت بجواري في وضع عجيب ينبئ عن تهشمها تمامًا. أتذكر التفاف الطلاب حولي في فضولٍ وترقُّبٍ خالٍ من الإشفاق. مضت حينها لحظات الألم كدهرٍ كاملٍ وأنا أنتظر النجدة قبل أن تنشق الصفوف عن أحد المدرسين الذي سأل بتوترٍ عما جرى، ثم رمقني بحيرة، قبل أن ينحني نحوي ويحملني فيشتد الألم..

أصرخ فيه أن يدعني وشأني لكنه لا يأبه بي ويذهب بي لمستشفى قريب حيث فقدت وعيي. أفقت فوجدتني في حجرة جدتي راقدًا على البساط. ساقاي عاريتان ومرجلها الضخم يغلي أمامها، وهي لا تكف عن تقليب ما به والدمدمة فوق سطحه بكلامٍ مُبهَمٍ.

اللفافات المخلوطة بالجبس كانت ملقاة بإهمالٍ حولي كأنما قد حلتها جدتي عن ساقي. وفوق رأسي كان «إيزار» تابعها الضخم، منتصبًا في جمود في انتظار ما يكون. انتبهت إلى جدتي فهمسَتْ:

- سوف تتألم قليلًا، لكنك سوف تشفى في الحال، لا حاجة بك إلى خزعبلات الأطباء ولا جبيرتهم السخيفة هذه. سترى أن جدتك أمهر منهم جميعًا.

أتذكر الألم فتنبض ساقي المهشمة بشدة كأنما تذكرت هي الأخرى ألمها. وتتصاعد الرائحة الخانقة وأفكر فيما تنتويه بارتياب. تنتهي وتصب في قارورة نحاسية صغيرة مليئة بالطلاسم والنجوم والأسهم، من سائلها الذي تعده، وتقربه من أنفي وتقول آمرة:

- اشرب هذا.

أرمق السائل كريه الرائحة، المائل للون الدم، وأتمنى ألا أفعل، وتترقرق في عينيَّ الدموع المتوسلة، لكنها تكرِّر أمرها بجزم وإصرار، فأتجرع السائل اللاذع المُر. تشتعل النار في جوفي في الحال وأشعر بعقلي يفور في رأسي ويغلي. أعاود الصراخ فيقبض إيزار على جسدي بإحكامٍ ويقيدني، وبأنامل لا تعرف الرحمة تتحسس جدتي ساقي المهشمة ثم تضغط.

يصير الوجع كالبركان حتى أتمنى الموت أو الغيبوبة فلا أنال أيهما ولا تستجيب جدتي لصراخي أو ألمي. في النهاية حين أنهكني الألم والصراخ كفت عما تفعله. وقالت لي بظفرٍ:

- والآن انهض. أريدك أن تمشي.

أنهض وقد شُلَّ الألم تفكيري، لأكتشف أن ساقي المهشمة تحملني ببساطة دون وجع؛ لقد برأت تماما. وابتسمت جدتي بتفاخر وقالت:

- لقد عدت سليمًا كجرس يا فتى. والآن دعني وعُد لحجرتك، فجدتك مشغولة كما تعلم، هناك ما أقوم به.

وفي اليوم التالي كنت بالمدرسة، وظلت العيون تلاحقني بدهشة لا حدود لها من ساقي التي شفيت تمامًا في يومٍ واحدٍ. وفي الحال تعالت الهمسات واتجهت سهام الشك كلها نحو جدتي. واتفق الجميع أنه السحر وحده من فعل هذا، وبدلًا من أن يبدي أحدهم سعادته بسلامتي ازداد نفورهم مني وازدادت الكراهية التي تنبثق من عيونهم.

تأكدت حينها أنني لا أنتمي أبدًا لهم وأنهم لن يتقبلوني يومًا ما.

هل فكر أيهم في يوم ما تأثير هذا في نفس طفل يتيم لم يتعد العاشرة في ذلك الحين. هل رواد عقل أيٍّ من كل هؤلاء ما عواقب ما يقومون به.

صرت أكره كل شيء. حياتي، جدتي، وحدتي، زملائي والمدرسة والعالم أجمع. الكل ضدي دون أن أقترف جريمة فخاضت روحي حربها الخفية ضد الكل. لو أمكنني حينها أن أحطم العالم كله لفعلت. لو امتلكت الشجاعة لقتلتهم جميعًا ثم قتلت نفسي.. لكني ويا للبؤس كنت أهاب الموت.

مضت السنون والعزلة من حولي تتسع، وأنا في عالمي أنكمش،

وبعـد حـين سـئم الرفـاق مـن تتبعـي وإيذائـي فكفـوا عـن ملاحقتـي. ربـما دفعهـم لهـذا اعتـزالي التـام لهـم، وربـما مـا لمسـوه مـن ضعـفٍ لا أحـاول مداراتـه، وربـما هـي تحذيـرات لقنهـم إياهـا آباؤهـم وأمهاتهـم.

صـارت الحيـاة أكثـر سـلامًا، لكننـي لم أغـادر قوقعتـي حتـى انتهـت المرحلـة الإعداديـة. وفي الثانويـة اقتحـم حيـاتي صديقـاي الأثـيران عمـرو وخالـد، رغـم كل الهمسـات التـي يرددهـا الـكل مـن حـولي عنـي وعـن جـدتي. نجحـا في جـذبي مـن شرنقتـي وإعـادتي للانتبـاه للحيـاة ثانيـة. لا أدري حقًّـا كيـف كنـت لأغـدو لولاهمـا في الواقـع.

كنـت حينهـا في فـورة تمـردي ومراهقتـي وقـد كرهـت حيـاتي مـع جـدتي وقـد حملتهـا الذنـب كامـلًا في كل مـا يحـدث لي وبـدأت التمـرد. ربـما كنـت لأصـير معقـدًا نفسـيًّا أو سـفاحًا، وربـما فعلـت مـن المجـازر والجرائـم الوحشـية ضـد الجميـع مـا تتحـدث عـن الأقـلام والأفـلام والصحـف.

ربـما أتـى صديقـاي في الوقـت المناسـب قبـل أن أفقـد نفسـي للأبـد، وربـما كانـا رحمـة مـن الله لي في ذلـك الحـين كـي أرى جانبًـا آخـرَ مشرِقًـا في الحيـاة. تبـدَّل حالي كثـيرًا وفارقـت عزلتـي، إن صديقـين حقيقيَّيْن يشـاركانك تفكـيرك وحماقاتـك ونزواتـك لجديريـن بتبديـد الكثـير مـن العزلـة.

لكـن هـذا لا يعنـي أن الحيـاة صـارت أفضـل، فـما زلـت أعيـش مـع جـدتي ومـا زالـت تقـوم بالسـحر - بـل وتشركنـي أحيانًـا في أعمالهـا الرهيبـة - ومـا زال البعـض يـراني ابـن السـاحرة الشـمطاء الـذي ربـما يشـاركها في التهـام قلـوب الرضـع وأكبـاد العـذراوات.

كانت حياتي مع جدتي كابوسًا لا ينقطع، ولم تكن أبدًا لتصلح لتنشئة طفلٍ سويٍّ.

كنت لأصير مجرمًا لولا رحمة الله، لكن الندوب التي تركتها تلك الأعوام في نفسي ما زالت حية لم تمت بعد.

فهل يأتي اليوم الذي أنساها أو أنجح في تناسيها؟.

❋❋❋

(2)

هل تعرفون إيزار؟

لم أحـب يومـا ذلـك الرجـل، وقـد كنـت منـذ الوهلـة الأولى أخافـه، كان خـادم جـدتي أو تابعهـا كـما صححـت لي بعدهـا وهـي تطالبنـي ألا ادعـوه ثانيـة بالخـادم، ولم أعلـم إن كان إفريقـيّ أم نـوبيّ أم هنـديّ الأصـل. كل شيء مـن هـذا كان ممكنًـا.

كان متوسـط الجسـد رفيـع الجسـد ذو وجـه برونـزي يميـل للسـمار كالهنـود. وكان يملـك شـعرًا مفلفـلًا خشـنًا وشـفتين غليظتـين كالزنـوج الأفارقـة. لكنـه كان يـدرك كل حـرف مـن حديـث جـدتي أو حديثـي كأنـما تربـى طـوال عمـره هاهنـا. تمـلأ الأوشـام ذراعيـه المكشـوفين صيفًـا شـتاءً وتزحـف خلالهـا حتـى تغطـي كتفيـه. وفي أذنـه اليسـرى تعلـق حلـقٌ ذهبـيٌّ كبـيرٌ أدهشـني في المـرة الأولى.

رجل يرتدي حَلَق؟!

كان يقـوم بـكل شيء في المـكان.. يعـد الطعـام الـرديء لي ولجـدتي، وينظـف البيـت.. يتسـوق أغـراض البيـت وأغـراض جـدتي الغامضـة، وينظـم دخـول زبائنهـا لحجرتهـا، بـل وكثـيرًا مـا يشـاركها طقوسـها

الشيطانية. وفي المساء بعد أن ينتهي من كل هذا يتكوم على كنبة الصالة وينام كالذئاب بنصف عين مفتوحة.

ففي كل مرة أسير فيها بجواره وهو راقدٌ على كنبته وأنا أتعمد ألا أُصدر أي جلبةٍ كان يستيقظ. يهب من رقاده بنشاطِ مَن لم يعرف النوم، ويرمقني بعينيه الواسعتين الجامدتين كالزجاج ثم يستلقي ثانية. يحدث هذا كل مرة مهما كان الوقت متأخرًا ومهما حافظت على سكوني.

لم يهتم يومًا بالنظافة ولم أرَه يستحم يومًا وظل جسده طوال الوقت يرسل رائحة زيتية غريبة، ليست بالمحببة ولا بالكريهة. فقط تشعرك بالنفور. عيناه واسعتان جامدتان كأعين الدمى يحيطهما دومًا بطبقة كثيفة من الكحل تزيد من فزعي منه.

لم يتفوه بكلمة واحدة منذ رأيته. وكان يقوم بكل شيء بكفاءةٍ بصمتِ البكم. ظننته أخرسَ. وبعد أعوام ابتسمت جدتي حين أخبرتها باعتقادي هذا. واصلت إعداد مخلوط غريب عجيب الرائحة وقالت ساخرة:

- الكثير مما تعتقده يا شريف خاطئٌ. لا تدع المظاهر تخدعك.

- أتعنينَ أنه يمكنه الكلام؟

- لم أقل هذا.

- إذا هو ماذا؟!! أبكم أم يتحدث. لست أفهم.

ترمقني بعينين غائرتين بعيدتين وتقول ساخرة بصوت كالفحيح:

- اعرف بنفسك. إنه أمامك، لماذا لا تسأله.

وأسأله حينَها. يواصل ما يقوم به ولا يجيب. أُلِحّ في السؤال، فيتوقف ثم ينظر إليّ نظرته الزجاجية الشبيهة بعيون السمك الميت. أرتجف حينها وحين ينصرف عني أنصرف عن سؤاله وأبتلع فضولي في جوفي.

تلتف النساء حوله كالفراشات حول النار، كلهن يولينه الاحترام الذي يقدمنه لجدتي ويدسسن في كفيه الأموال بل وبعض الحلي الذهبية في أحيانٍ كثيرةٍ. يسألنه أن يتوسط إليهن مع جدتي وبعضهن قد يرغبن فيه. لكنه أمام كل هذا كالصنم. الكل لديه سواء ولا تنال منه أيهن أي شيء. إنه تابع جدتي المخلص وقد ارتضى أن يكون هذا دوره في الحياة.

وفي الشتاء تبدأ الحكايات وتخلق الأساطير وتزدهر كائنات الظلام. وفي ذلك المساء كانت السماء غاضبة كما لم تفعل منذ وقت طويل. الريح تزار في الفضاء والسحب متراكمة متثاقلة بالأمطار والبرد لا يحتمل. وفي منتصف الليل بدأت الحفلة العاصفة. انهمرت السيول بغتة وراحت الريح تصفر بلا انقطاع وانقطع التيار الكهربائي كما ينبغي له لأن يفعل في أوقات كهذه.

يلازمني الأرق حينها ويضرب قلبي الفزع وأهاب الظلام. وحين أفشل في كتمان مخاوفي أتحرك مغادرًا غرفتي بحثًا عن شمعة ما تزيح الظلام وخيالاته.

لا أدري لماذا شعرت حين دخلت الصالة المظلمة باضطربِ قلبي بلا سبب فتوقفت في منتصفها وأنا لا أدري ماذا أفعل.

إنني خائف!!

وأشعر أن سقف المكان يحوي المزيد. أرفع عنقي لأعلى وتتسع

عينـاي محاولـة اخـتراق الظـلام الكثيـف، والغريـب أنهـما تنجحـان. وحـين غـرة يبـدو السـقف رغـم الظـلام مرئيـا. كأنـما اكتسـبت مقلتـاي مقـدرة الرؤيـة في الظـلام.

وكان هناك.

كان إيـزار عاريًـا كـما ولَدَتْـه أمـه وقـد تعلّـق في السـقف بأطرافـه الأربعـة كالخفافيـش ورأسـه مصـوب نحـوي يراقبنـي كـما أراقبـه.

كانــت عينــاه متســعتين عــن آخرهمــا وعــلى شــفتيه الغليظتــين ارتســمت ابتســامة مخيفــة وقــد أدرك أننــي أراه.

كانت هذا اكبر من مقدرتي فهويت مفارِقًا الوعي دون أن أشعر.

أستيقظ فأجـد ضـوء الصبـاح يخترق نافـذتي الزجاجيـة بينـما يدخل (إيـزار) الغرفـة حامـلًا الإفطـار كـما يفعـل كل يـوم. أصرخ كأنـما رأيـت شـيطانيًا وقـد عاودتنـي ذكريـات الليلـة الماضيـة فيتجمـد في مكانـه لحظـة قبـل أن يفسـح المكان لجدتي كـي تدخـل لـترى مـا أفزعنـي.

- إنه شيطان يا جدتي.. شيطاااان

أصرخ بها فتصيح في وجهي:

- صه أيها الأحمق.. إنه إيزار..

لكني لا أرفع بصري عنه وأواصل فزعي وجنوني:

- لقد كان معلّقًا في السقف في الظلام، إنه شيطان، شيطان لعين.

وتلطمنـي جـدتي بغضـب، وتقـرب وجههـا مـن وجهـي اللاهـث وتقـول محـذِّرةً:

– لا تتفوه بتلك الهراءات ثانية. لقد كنت تحلم. إنه كابوس أيها الجبان.

لكنني أعلم أنه لم يكن كابوسًا. فما زلت أشعر بالتوجع في جبهتي من أثر السقوط أمس.

يزداد نفوري من إيزار وأتحاشاه كالقط الأسود اللعين ويدق قلبي فزعًا كلما رأيته.. وفي ليلة شتوية أخرى أسمع الأنين.

كنت قد اعتدت على الكثير من الأشياء الغريبة التي تدور في المكان. كل من كانت لديه جدة تعمل بالسحر يدرك بسهولة هذه الأشياء، لكن الأنين في تلك المرة كان ملفتًا وغريبًا. فكرت أن أغادر حجرتي رغم تحذيرات جدتي ألا أفعل. وفي النهاية غالبت ترددي وغادرت الغرفة، ليزداد الأنين قوة.

وكان الصوت يأتي من حجرة جدتي!

أقترب منها بأنفاسٍ محبوسةٍ وخُطواتٍ خرساءَ فأرى الهول من فرجة الباب. كانوا أربعةَ رجالٍ ونساءٍ بملابس سوداء وأقنعة تخفي وجوفهم، وخامسهم جدتي وبينهم يرقد إيزار. جدتي عن يساره وأحدهم فوق رأسه والباقون عن يمينه وبجوار قدميه. كانت جدتي تقوم بأبشع عمل تخيلته. كانت تشّرح جسده بسكينها وتشق بطنه وصدره بينما استكان هو في هدوءٍ وقد أغلق عينيه كالموتى. الغريب أن ضبابًا أحمر كان ينبعث من جسده المفتوح والخمسة يدمدمون حوله بتعاويذ مبهمة لا أفهمها.

كانت جدتي جدتي تقتل إيزار. هذا ما كنت أراه. ومرة أخرى تضاعف الهلع في نفسي فعدت أدراجي وتقوقعت على نفسي في

فراشي ورحت أنتفض بردًا وهلعًا. لقد صارت جدتي قاتلة، بل وقتلت إيزار. بالطبع كنت أخافه ولا أحبه ولم يكن موته يحزنني لكن ما رأيته كان فوق احتمالي.

وفي الصباح كان هناك على باب حجرتي سليمًا كالجرس. وكان هذا مفزعًا أكثر من موته نفسه ودون أن أشعر رحت أبكي دون أن أجرؤ على الصراخ مرة أخرى.

هذا رجل كان ميتًا بالأمس يمزقون بدنه، واليوم أراه سليمًا معافى. هذا ليس بشريًا حتمًا. هذا شيطان رغم أنف جدتي وغضبها ورفضها تصديق الأمر.

وازددت نفورًا منه ومن جدتي كذلك.

ليتني أفارق هذا الجحيم الذي أحيا به. ليتني أقدر.

وتحتشد ذاكرتي بعشرات الذكريات عن الرجل. ما زلت أذكر كيف سمعت صوته للمرة الأولى. كانت جدتي خارج المنزل في إحدى ليالي الخميس كما اعتادت وكان يحدث القط بلُغةٍ لم أفهمها والقط يبادله الحديث. كان جنونًا حاولت أن أقنع عقلي أنه وهمٌ لم يحدث.

وبعد سبع سنواتٍ وفي ليلة شتوية أخرى كانت حكايته الأخيرة. جدتي بالخارج والمساء كالعادة عاصف والليل يقترب من منتصفه وأنا حبيس حجرتي تتلاعب بي الخيالات. وبغتة أجد القط في الحجرة دون أن أدري كيف دخل. وللعجب راح يختبئ أسفل الفراش.

تملكتني الدهشة من فعلته التي لم يقم بها من قبل وتناهت لأذني الصرخات التي تأتي من الصالة وانقطع التيار الكهربائي لحظتها.

لم أجسر على مغادرة الغرفة وتوالت الصرخات المتألمة القادمة من الصالة. أعلم أن إيزار هناك وأتساءل هل يعذِّب هذا الشيطان أحدًا.

وأتصلص من ثقب المفتاح ورغم الظلام أرى الأشباح السوداء التي ملأت الصالة، وذلك الضوء الأحمر الذي أزاح الظلام، وأرى جسد إيزار المعلَّق في الفراغ وذراعاه وقدماه مفتوحتان عن آخرهم وجلده يفور وينبعث منه أبخرة وردية مخيفة دون أن يكف عن الصراخ والعويل.

أتجمد في مكاني وأنا لا أفهم ما هذا الذي يحدث فلا أقدر على مغادرة المكان إلى فراشي كي أختبئ أسفل أغطيته.

يطول صراخه ويزول الجلد عن جسده وتبدأ العضلات دورتها في التحلل وتزداد الأبخرة الوردية كثافة وما زال إيزار يصرخ دون أملٍ في نجدةٍ. وفي النهاية يرفع أحد الأشباح ذراعًا عظميًا في الفراغ. يحرك قبضته لليسار فتنثني رأس إيزار في زاوية مستحيلة. يدير إصبعه العظمي في الناحية الأخرى فينثني ظهر إيزار حتى يتكسر في فرقعة مريعة مصحوبة بصرخة مكتومة. وحين تهبط الذراع تشتعل نيران زرقاء بغتة في جسد إيزار فأشهق هلعًا فتلفت الأشباح كلها نحو باب حجرتي فأتهاوى فاقد الوعي كعادتي. إن ما يدور في هذا المكان اللعين فوق احتمالي ففي النهاية كنت صبيًّا لم يتم عامه الثامن عشر حينها بعد.

وتعود جدتي في الليلة نفسها على غير عادتها. وأراها وهي ترمق الجسد المتفحم الذي التصق بالسقف. تتمتم بغضبٍ كلمات

لا أتبينها وتأمرني أن ألزم حجرتي فأفعل حتى المساء. أغادرها فلا أجد أثرًا للجسد المتفحم على السقف. وبالرغم من فزعي مما رأيته إلا أنني كنت سعيدًا. لقد ذهب هذا اللعين إلى غير رجعة. لقد كان شيطانيًا. أقسم على هذا.

لكن فرحي لا يطول وحين أعود من مدرستي بعد أسبوع من الحادثة أجد إيزار هو من يفتح الباب لي. أثب كالملسوع في فزعٍ وأصرخ فتناديني جدتي وهي تأمرني أن أصمت. تقتادني من ذراعي المرتجف للداخل وأسألها بصوت مخنوق:

- هل هذا إيزار؟ ألم يمت!

- بلى. لقد مات إيزار فجئنت بأخ له. اسمه إيزار أيضًا وهو أخوه التوأم. لكن لا تلقِ بالًا للأمر اهتم بدروسك. هل فهمت يا ولد؟!!

* * *

(3)

ومازالت الليلة الشتوية الطويلة في بدايتها لم تبلغ منتصفها بعد، وما زالت الذكريات تنسال على ذاكرتي بلا انقطاع. الرياح خارج الغرفة صارت عاصفة تزأر، والمطر يزداد انهمارًا وقطرات الماء أضحت سيولًا تضرب زجاج النافذة بلا انقطاع، والبرد ظل يمارس هوايته الأثيرة في اختراق العظام وبث الرجفة بها.

أتدثر بالمزيد من الغطاء، وأطفئ المصباح وأبحث عن النوم الذي أعلم أنه لن يأتي. كانت أم كلثوم قد كفت عن شدوها وحان وقت فيروز لتمنح هذه الليلة الباردة بعض الدفء والشجن بصوتها الدافئ الشجي.

«أنا لحبيبي وحبيبي إلي ..»

وأستعيد المزيد من ذكرياتي في كنف جدتي فينقبض صدري من هول ما عشته. يا إلهي الرحيم كل هذا حدث لي وقد كنت طفلًا وصبيًّا لا خبرة لي بالحياة ولا ألاعيبها وقسوتها. رأيت من الأهوال ما لا يحتمله الرجال وعاصرت أحداثًا يشيب لها الولدان.

أريـد أن أنسـى. أريـد أن أمحو كل تلـك الشـخبطات المريعـة مـن صفحـة روحـي. أريـد أن تعـود صفحـة روحـي بيضـاء ثانيـة مـن غـير سـوء. وأريـد أن تفارقنـي الذكريـات، وأن تسـتريح نفسـي منهـا ولـو قليـلًا.

أبحث عن النوم عسى أن يأتيني بالسلوى. لكن عقلي يعاندني. أتذكـر تدريبـات النـوم التـي قرأتهـا غـير مـرة. وأفكـر في تنفيذهـا. أغمـض عينـيَّ وأكتـم أنفـاسي لعشر ثـوانٍ ثـم أحررهـا. أعيـد الكـرة غـير مـرة في انتظـار أن يداعبنـي النـوم. يزعمـون أن هـذا التدريـب يقلـل مـن نشـاط الموجـات الدماغيـة ويجعلهـا تصـل إلى المراحـل التـي تحـدث عـادة في المراحـل الأولى قبـل النـوم. أنتظـر هنيهـة ثـم أتأكـد أن النـوم لـن يـأتي بهـذه الطريقـة.

وأفكـر في حيلـة أخـرى. أتنفـس ببـطءٍ وانتظـام وأحـاول طـرد الأفـكار عـن عقـلي. كلـما لاحـت فكـرة مـا أسـارع بنبذهـا. لكـن الأنفـاس لا تلبـث أن تضطـرب والذكريـات تعـود لتنهمـر. ويعـود إلى بـالي السـؤال الـذي طالمـا حـيرني:

هـل كانـت جـدتي تحبنـي حقًّـا أم تراهـا قبلـت أن أشـاركها الحيـاة بغـير رغبـة حقيقيـة بي؟

لم تعتـد أن تجلـس معـي أو أن تهتـم بشـئوني. لم تسـألني يومًـا عـن مقـدار تقدُّمـي في الدراسـة. لم تهتـم بمعرفـة اهتماماتي ولا طموحـي. لم تبـد قَـط رغبـة لمعرفـة مـاذا أخطـط لمسـتقبلي ولا مـاذا أنتـوي أن أكـون. لم تـزُرني مـرة واحـدة في المدرسـة، لم تحضـر حفلـة أشـارك فيهـا، ولم تعنـف مدرِّسًـا لأنـه أهمـل تلقينـي.

كنت دومًا خارج نطاق حياتها وحيز اهتمامها ولم تقربني إلا حين تحتاج إليَّ في عمل من أعمالها.

وفي ليلة شتوية مظلمة دعتني للجلوس بحجرتها. البرد والظلام ولهجتها الودودة أرعباني فراحت أسناني تصطك. حتمًا ترغب في إشراكي في أمرٍ شيطانيٍّ من أمورها الرهيبة. ذهبت إليها بتراخ فأشارت إليَّ أن أجلس بجوارها. ثم غمغمت:

- لم يحبني أبدًا أبوك رغم أني أمه. ألم يخبرك يومًا أنه يكرهني؟

أهز رأسي ببطءٍ نافيًا. ولا أدري لماذا تحدثني بهذا الآن. يظللنا الصمت للحظات ثم تعاود حديثها بصوت أكثر رقة لم أسمعه منها من قبل:

- الوغد هجرني و«استعرَّ» مني. نظر إلى كما يراني الكل. ساحرة عجوز شمطاء شريرة. لم يهتم بمشاعري وحاجتي إليه بقربي، ولم يفكر يومًا في زيارتي أو الاطمئنان عليَّ. بدا وكأنه قد نسيني تمامًا.

وصمتت وقد تهدج صوتها. شعرت بالدهشة الممزوجة بالشفقة. جدتي القاسية التي لا قلب لها تشكوني هجر ابنها لها حتى مماته.

تنزعني من تأملاتي وهو تواصل حديثها بصوت باكٍ:

- إنها مهنتنا منذ القدم. هذا صحيح رغم أنك قد لا تصدق هذا. كانت هذه المهنة مهنة عائلتك منذ القدم. سِرُّنا الدفين الذي لم نطلع عليه أحدًا. ميراثنا السري الذي ينتقل من جيلٍ لجيلٍ منذ عهود الفراعنة والعماليق. لَكِنَّ أباك رفض أن يُصدِّق. رفض أن

يتسلم مكانه في تِركته. لفظني حيث صار قادرًا أن يستقل بحياته ونعتني بالكفر.

وراحت تنتحب وأنا لا أصدق أن هذا يحدث أمامي.

جدتي؟!!

تلك الرهيبة القوية الصارمة تنال منها لحظة ضعف بل وتبكي هكذا. ربما هذا لا يحدث. ربما أحلم. نعم حتمًا هو حُلمٌ. جدتي لن تفعل هذا أبدًا في الواقع. جدتي لا تعرف الضعف. جدتي لا تبكي.

- لقد كنت أحبه. وانتظرته طوال الوقت. انتظرت أن أراه أمامي بغتة ليخبرني أنه قد عاد أو حتى أنه حتى يرغب في رؤيتي. لكنه ظلَّ جامد القلب فلم يفعل أبدًا. كنت قادرة على إجباره أن يأتي إليَّ رغمًا عنه. كنت قادرة على الإتيان به في أي لحظة بقواي. لكن ما جدوى هذا. ما جدوى أن يمكث بجواري وهو قد لفظني من حياته. صدقني يا بني لم أكن بقادرةٍ على احتمال نظراته اللاعنة الرافضة لي. فضَّلت أن أتتبع أخباره من بعيد.

وشعرت بالإشفاق عليها. إنها في النهاية أم. أم ظلت تبحث عن ابنها الذي هجرها وتنتظره حتى مات، فلم تنل أمنيتها تلك أبدًا. هل كان أبي قاسيًا هكذا معها. ربما لا يروقه ما تقوم به من أعمال السحر والشعوذة تلك. لكنها أمه. ما الضير لو ابتعد عنها وحافظ على زيارتها من حين آخر.

هل أخطأ أبي؟

ربما.

وجففت دموعها التي لم أتبينها جيدًا في الضوء الخافت الذي نجلس فيه. وأطلقت ضحكة قصيرة مشروخة وأكملت:

- لقد كنت أراه طوال الوقت. لم يمضِ يومٌ دون أن أراه. رأيته في عمله. رأيته في منزله. رأيته مع أمك في زفافهما. كان وسيمًا جدًّا. ياااه. كم تمنيت أن أحتضنه حينها وأن أقبِّل جبهته وأن أبارك عروسَه. شاهدت هلعَهُ عليها خارج غرفة الولادة وهي تلدك. واخترقت غرفة الولادة ورأيتك وأنت تولد: قطعة من اللحم الملوثة بالدم محمولًا بيدِ طبيبٍ أصلعَ بدين ومقيد بأحشاء أمك بالحبل السري. كنت تبكي حينها. ما زلت أتذكَّر صوتك الرفيع المزعج. لقد كان مزعجًا حينها أيها الأحمق. تمامًا مثلما كان أبوك حين ولدته. كنت تشبه تمامًا.

وتعالت ضحكتها وعادت لتمسح دموعها. وابتسمت وأنا لا أدري كيف رأت كل هذا. بدت لي في تلك اللحظة أفضل جدة في العالم. جدة لا أعرفها، أحبها وأتمنى لو أحتضنها وأخبرها بحبي. وقبضت على كفي وقربتني من بلورتها السحرية التي تستعملها في عملها. لمستها فتعكر سطحها وخرج منها بعض الضوء ثم بدأت الصور الحية تتحرك على سطحها:

- لقد سجلت كل شيء في بلورتي الرائعة هذه.. انظر!!

ونظرت ورأيت. رأيت الكثير من الذكريات رأيت أبي يتشاجر. رأيته يشارك أصحابه الضحك في العمل. رأيته يقبض على كفي أمي بحنان وهما جالسان في كازينو على النيل. رأيته يخطبها وجدي

لأمي يضحك. رأيته وأمي في زفافهما. ورأيت أمي تلدني. ودون أن أشعر بنفسي رحت أبكي بصمتٍ وأنا أتذكرهما.

راقني أن أرى أمي حية على سطح البلورة تتحرك وتبتسم وتضحك. لم أرها أبدًا وقد ماتت وأنا ما زلت صغيرًا. لم أعرفها إلا من خلال الصور الجامدة. كانت المرة الأولى التي أراها هكذا. كانت أمي بالفعل. هذا المخلوق الرقيق الرائع كان أمي. هذا المخلوق الرائع الجميل مات بغتة تاركًا رضيعًا يتوق للمسة حنان واحدة منه. وشعرت بأنامل جدتي تحيطني بغتة وتضمني نحو صدرها النحيف العظمي فدنت رأسي فيه ورحت أنتحب. وهدهدتني وهي تقول:

– لا تعلم كم كنت سعيدة حين أتيت إليَّ في المرة الأولى. لقد رأيت فيك أباك الراحل مرة أخرى. شعرت أنه هو من عاد. تمنيت أن أبكي أمامك وأن أحتضنك. تمنيت أن أخبرك أنني أشتاق إليك أيها الأبله. لكنني غالبت نفسي. لن أتعلَّقَ بك ثانية. لن أتعود على الاهتمام بك. لن أمنحك حبي لتمنحني الألم والوحشة لو كبرت وقررت أن تهجرني بغتة كما فعل أبوك. لم أكن حينها لأحتمل أمرًا كهذا، وقد وصل قطار العمر لمنتهاهُ. قررت ألا أحتفل بعودتك.

وراح جسدها ينتفض وهي تبكي ولا زلت أبكي بين ذراعيها. وربت على ظهرها وقلت:

– لن أتركك يا جدتي، أعدك ألا أفعل.

لكنها قالت وهي تبعدني عنها:

- صه أيها الأحمق، لا تعدني بشي قد لا تحققه بعد ذلك. يكفيني أنك بجواري الآن. لقد حان الوقت لأخبرك أنني أحبك كثيرًا يا بني. أحبك كما أحببت أباك من قبل وربما أكثر. لقد ضعفت العجوز ولم تعد بقادرة على كتمان مشاعرها. لكن إياك أن تستغل هذا. لن أضعف أمامك أبدًا.

وضحكنا بعدها كثيرًا. إنها ذكرى ليلة شتاء أخرى صارحتني خلالها جدتي بحبها لي وأجابت على سؤال طالما حيرني: هل تحبني جدتي.

لقد أحبتني تلك العجوز إذا، لكن الأمر لم يختلف بعدها ففي اليوم التالي عادت جدتي الباردة القاسية مرة أخرى. غابت النظرات الحانية عن عينيها وعادت لديدنها معي.

هل كانت ذكرى تلك الليلة وهم اختلقه عقلي أم تراها ذكرى حقيقية نادرة أتاحت لي معرفة الحقيقة.

مَن يدري؟!!!

***

(4)

تقوم جدتي بالكثير من أعمال السحر والشعوذة طوال الوقت. هناك دائمًا من ينتظر خدماتها ومن يبحث عنها. تقوم بها بمفردها حينًا وبمساعدة إيزار أو ذلك القط الأسود اللعين الذي لا أحبه. أو بمساعدة بعض أقرانها من المشعوذين الآخرين أحيانًا أخرى.

تعودت أن أمكث بعيدًا عن كل تلك الأمور، وألا يدفعني فضولي لمعرفة فحوى ما تقوم به. إنه عالمهم الذي لا أنتمي له، إذًا لأتقوقع حول نفسي في عالمي البريء ولا أعكره بتلك الممارسات الشيطانية.

لكنها لم تدعني، وبعد شهور من انتقالي للحياة معها أدخلتني عالمها رغمًا عني، ولم أقدر على الرفض.

ولا زلت أذكر تمامًا تلك المرة الأولى:

كانت هناك امرأة يبدو عليها الثراء الفاحش تقبع بجوارها ونادتني جدتي. جلست وطالبتني جدتي أن أرقد على ظهري بينهما ورأسي بين كفي جدتي. رمقتهما بحيرة وخوفٍ فأشاحت تلك المرأة بوجهها بعيدًا عني بينما قالت جدتي بهدوءٍ:

- لا تخشَ شيئًا يا صغيري. الأمر سهلٌ ولن تشعر بشيء. سوف أسأل إيزار أن يجلب لك المزيد من الحلوى لو لزمت الهدوء.

ولزمت الهدوء تمامًا ليس من أجل الحلوى. لكن لأنني كنت مضطربًا خائفًا. تصاعد الدخان وغمرت رائحة البخور الغرفة وراحت جدتي تضغط على جبهتي في حركات دائرية وهي تمتم بكلمات غامضة. أغمضت عيني بعدها وكما وعدتني لم أشعر بشيء. وحين استيقظت كنت على فراشي ولا أحد بجواري. كان رأسي ينبض بقوة والصداع العنيف يلتهم عقلي وشعرت بالألم في جبهتي. تحركت نحو المرآة وهالني تلك العلامة الدامية المؤلمة على جبهتي. ماذا فعلوا بي ولماذا أشعر بكل هذا الألم؟

ولم أتمالك نفسي ورحت أبكي. أتى إيزار يستطلع الخبر ثم غادر المكان وعاد برفقة جدتي. ابتسمت في وجهي والقت في حجري بكيس مليء بالحلوى وقالت لي:

- هذا من أجلك لأنك ولدٌ مطيعٌ.

- رأسي يؤلمني!!

- سيزول هذا حالًا. دَعني أرى.

وأحاطت جبهتي بأناملها وراحت تمسد جلد رأسي وتتمتم. أبعدت يدها بعدها فزال معها الصداع العنيف كالسحر، وابتعدت وهي تقول بانتصار:

- أرأيت؟ لقد زال الألم، هل أنت سعيد الآن؟

وتكـرر الأمـر، وعلمـت بعـد حـين لمـاذا تسـتعملني في بعـض أعمالهـا. لقـد كنـت طفـلًا وزعمـت أن هـذا يصلـح في اسـتدعاء الأرواح العصيـة. الأطفـال يملكـون أرواحًـا نقيـة كـماءِ جنـدول ولم تتعكـر بعـد بالآثـام والـشرور، وهـذا يجعلهـا قويـةً لا تُقـاوَمُ.

في العـادة تسـتعمل جـدتي معاونـين آخريـن مـن بينهـم إيـزار في جلسـات تحضـير الأرواح واسـتجوابهم. لكنهـا تدخـرني لـلأرواح القويـة أو العنيفـة. وفي كل مـرة يكـون هنـاك علامـات داميـة مؤلمـة بجسـدي تلازمـه لفـترة طويلـة وفي كل مـرة ينهشـني هـذا الصـداع العنيـف الـذي يجتـاح لمعاونـة جـدتي ليـزول.

ظلـت تمنحنـي حينهـا الحلـوى أو الأمـوال وتمنـع عنـي العقـاب، لكنـي لا أريـد أيًـا مـن هـذا، فقـط أتمنـى لـو تتركنـي وشـأني، وفي ليلـة شـتوية بـدأتْ أقسـى التجـارب التـي عشـتها في هـذا البيـت.

كنـت بحجـرتي وتصاعَـدَ الشـجار والأصـوات المختلطـة بالخـارج. اعتـدت هـذا لكـن الوقـت كان ليـلًا وقـد تجـاوَزَ الوقـت منتصـف الليل ولم يكـن هـذا الوقـت موعـدًا لعُمـلاء جـدتي. خرجـت لأسـتطلع الخـبر فرأيـت إيـزار عـلى بـاب حجرتهـا المفتـوح واقفًـا وقـد عقـدَ ذراعيـه أمـام صـدره. وهنـاك مـن يـصرخ داخـل الحجـرة:

- أنـت مـن تسـبب فيـما نحـن فيـه أيهـا الأحمـق. سـوف أقتلـك مـن أجـل هـذا.

ويجاوِبُه صوت عصبي قوي هو الآخر. يقول معترضًا:

ومن أدراني أنه قد يموت. لقد دخل البئر ولم ينطق بعدها.

- كان ينبغي عليك أن تحتفظ بنسخة أخرى من خرائط المكان.. والآن ما الحل؟

لست أفهم ولا يعنيني في الواقع أن أفهم. تأهبت للعودة لحجرتي وقد أدركت أن الأمر لا يتعلق بجدتي بل بهذا الذي اصطحب أسراره معه إلى قبره.. لكنني كنت متعجلًا.

كنت متعجلًا للغاية في الواقع.

وابتسم إيزار في وجهي ابتسامةً أعرف ما بعدها فاضطرب قلبي ولحقه صوت جدتي وهي تناديني:

- تعال هنا يا شريف.

أترَدَّدُ في إجابتها ولا ادرك كيف شعرت بي. دائمًا تفعل، وكالمساق نحو مشنقته تحرك إليها. كانوا أربعة رجال وامرأة في حجرتها. بعضهم يرتدي جلبابًا وأحدهم يرتدي بزة حديثة برباطة عنق والمرأة ترتدي ملابس عصرية وقد أطلقت شعرها.

أنتبه لجدتي الغارقة في الضباب والدخان والبخور الذي تستعمله وأرى الابتسامة التي لا أحبها على شفتيها هي الأخرى. ويحرك القط رأسه نحوى كأنما هو سعيد هو الآخر بما أنا مُقدِمٌ عليه وتقول جدتي بنعومة:

- جدتك الحبيبة تسألك خدمة من أجلها. هل تفعلها؟

بالطبع أدرك ما سأتورط به، يرمقني الجميع وأقول بخشونة:

- ماذا هناك يا جدتي؟

- هـؤلاء السـادة يرغبـون في معرفـة سِرٍّ مـا حمله أحـد أقاربهم الموتـى معـه لقبره. نحـاول منـذ مـدة تحضير روحه لكنهـا لا تستجيب.

بالطبـع هـذا مـا توقعتـه. لقـد أتـوا ليسـألوا الـروح المعذبـة البريئـة أن تمنحهـم بعضًـا مـن نفحاتهـا وأن تتصـل بـروح قريبهـم النافـرة. تسـألني جـدتي المسـاعدة. وهـل أملـك رفاهيـة الرفـض. أتجاهـل العيـون المصوَّبـة نحـوي بترقـب وأرقـد بينهـم كـما أفعـل كل مـرة وأغمـض عينـي وأقـول بآليـة:

- أنا مستعد.

وتبـدأ الطقـوس وأغيـب عـن العـالم. أفيـق بعدهـا شـاعرًا بـألمٍ حـادٍ في ذراعـي وصـدري مصحوبًـا بالصـداع المعتـاد. ومـن الشـجار المحتـدم حـولي أدرك أن الأمـر قـد فشـل.

لقـد عاندتهـم الـروح مـرة أخـرى ورفضـت الإذعـان لهـم. كان هـذا يحـدث معـي للمـرة الأولى؛ فلـم يفشـل الأمـر معـي مـن قبـل. لكـن هـذا لم يشـغل بـالي فـالألم بذراعـي ورأسي كان حـادًا لا يطـاق. أحـاول أن أنبّـه جـدتي وسـط الصخـب الدائـر أننـي أتـألم وان تعالجنـي فـلا يطاوعنـي صـوتي إرهاقًـا ولا تنتبـه لي. وكان آخـر مـا سـمعته قـد أن أفـارق وعيـي ثانيـة صوتهـا وهـي تقـول لهـم:

- لَدي حل آخر ربما يفلح، لكنه خطير.

وكان الأمر خطيرًا بالفعل.. وكان الخطر كله من نصيبي وحدي!

لم يكـن الرضـوخ حينهـا ممكنًـا فاعترضـت عـلى مـا تقترحـه جـدتي، لكنهـا ألحـت. بكيـت وأنـا أخبرهـا أننـي لـن أقـدر لكنهـا وعدتنـي أن

يمضي الأمر على خير. لم أصدِّقها فالأمر خطير بالفعل. لكنها لم تتركني. وقد وعدتني بالكثير من الأموال التي يمكنني بها شراء كل ما أحب وأشتهي.

كانت بخيلةً بشدة ولا تمنحني إلا القليل وكنت بحاجةٍ للمال لأشتري الملابس الجديدة وهاتف محمول كأصدقائي وغيرها من أغراض المراهقين. لكن هذا الإغراء لم يفلح. رفضت بإصرارٍ فاحتدت عليَّ. وصرخت في وجهي:

- لن أتحايل عليك طوال الوقت. سوف تفعل ما أمرك به. هل تفهم. أم تراك تجهل أن بإمكاني إجبارك. والآن ما رأيك؟

وبكيت قهرًا ورضخت لها. أدرك أنها قد تحيل حياتي لجحيمٍ حقيقيٍّ يفوق ما أنا مقبل عليه من فزع. وفي مساء الليلة التالية كنا في المقابر برفقة أولئك الخمسة الملاعين في إحدى القرى الجبلية لمحافظة سوهاج.

السماء غاضبة مما نحن مُقبلون علينا، تصب على رؤوسنا جامّ غضبها وثورتها والأمطار لا تكف عن الهطول والريح تعبث بنا حتى تكاد أن تقتلعنا من أماكننا. ليلة شتوية أخرى تروق للشياطين، والمسوخ والوحوش بانتظار الأضحية الجديدة التي هي أنا هذه المرة.

وتخبرني جدتي بالهول. هذه المقبرة هي مقبرة صاحب تلك الروح العصية التي رفضت محاولتنا لتحضيرها. وهؤلاء السادة ينبشون المقابر القديمة والأرض بحثًا عن كنوز الفراعنة وذهبهم.

اشتركوا مع ذلك الميت في البحث عن بعض المقابر وعَلِمَ الميت مكانَ مقبرة قال إن كنوزها الكثيرة سوف تذهب بعقولهم لكنه لأمر في نفسه أخفى عنهم مكانها.

كان سوء حظهم حاضرًا حينها فمات الرجل في جوف بئر كانوا ينقّبون فيه عن مقبرة أخرى.

بالطبع كان الأمر أكبر من أن يتجاهلوه. فتشوا متاع الشريك الميت فلم يعثروا على ما يقودهم لمكان المقبرة المزعومة. جربوا مع المشعوذين والدجالين فلم يصلوا لشيء. نصحهم البعض بالبحث عن مساعدة جدتي فأتوا إليها، لكنها فشلت كالآخرين في تحضير روح الميت وإجباره على الكشف عن مكان المقبرة. لكن جعبة جدتي ظلت تحوي الكثير وكان اقتراحها الأخير رهيبًا.

كانت حليتها هذه المرة أن أهبط القبر لأمكث مع الجسد الميت. سوف تزوّدني بالتعاويذ والطلاسم التي ستساعدني على نقل ذاكرة المتوفى لعقلي. سوف أسرق من الجسد الميت كل معارفه وأسراره لأخبرهم بمكان المقبرة المزعومة.

ترتجف قدماي وتزأر العاصفة منذرة بالويل والثبور وأرى شياطين الجحيم بانتظاري. يفتحون القبر فيبدو مُظلِمًا كفم وحشٍ مخيف يستعد لابتلاعي. تتصاعد الرائحة الخانقة النتنة التي يعبق بها الهواء ولا تأبه بها جدتي. تتحرك في الأرض الزلقة المليئة بالوحل نحو القبر بينما يسندها إيزار كي لا تتعثر، ويتصاعد صوتها بالترانيم الشيطانية والتعاويذ.

تبرق السماء بغتة ويزأر الرعد فأرتجف وتشير لي أنَّ الوقت قد حان. أتمنى لو أهرب أو أعدو إلى أي مكان آخر، لكنني أتحرك نحو القبر رغم كل هذا. أنظر إليها برجاء عسى أن تقلع عن ما تنتويه لكنها تهمس لي:

- اطمئن لن يصيبك سوءٌ. لقد أعددت العدة لأي شيء. ستعود لي سالما.

أتعثَّر للحظة على باب القبر. أتمالك نفسي دون أن يساعدني أحدٌ ثم أهبِط. الرائحة عفنة لا تُطاق، والظلام سرمدي لا حدَّ له. وقلبي لا يكف لحظة عن الارتجاف وأصيح فيها.

- أريد مصباحًا، لا أرى أيَّ شيء أمامي.

- هذا غير ممكن. يجب أن يتم الأمر في الظلام. لكن إياك أن تغلق عينيك. لن يطول الأمر فنحن بجوارك. سوف نغلق الباب خلفك الآن.

ويغلقون الباب فيختفي العالم وأصير وحيدًا مع تلك الجثث المتحللة العفنة. هل يتخيل أحدهم أن يختبر صبي في السادسة عشر من عمره خبرة كهذه؟

أفتش عن رأس الميت وتصدم كفي بعشرات الأشياء اللزجة التي هي حتمًا لحمه المتحلل. أصل لرأسه ووعيٌ يكاد أن يفارقني وأشعر أنني سأموت فزعًا بعد قليل. أتذكر التعويذة التي حفظتني إياها جدتها مرارًا فأبدأ في تِلاوتها.

صوتي لا يكادُ أن يفارق حلْقِي المرتجف لكنني أواصل. عليَّ أن

أنتهي من الأمر بسرعة قبل أن ألحق بهذا الميت. وتجوب عيناي الظلام الرهيب محاولة اختراقه دون جدوى.

أشعر بوجود أولئك الغامضون من سكان القبور من حولي. أرى بعيني الخيال عشرات العيون التي تحدق بي ساخرة في انتظار اللحظة المناسبة للظفر بي وتستمع أذناي للهمسات الخفية التي تصدرها أنفاس أولئك الغامضين.

أواصل ترديد التعويذة وأشعر بالألم العنيف في صدري وتهتز الرأس في كفي كأنما تتحرك وأشعر بالتيار الكهربائي الذي ينتقل من الرأس الميت عبر ذراعي إلى رأسي.

وفي اللحظة التالية أراهم. أرى عيونهم السوداء المجوفة ورؤوسهم غير الآدميه. أرى أجسادهم الزاحفة المنتصبة. وأرى الغضب الذي يغلف محياهم. لقد حضرت وحوش الكوابيس نفسها الحفلة. ودون أن أدري بنفسي أغمض عيني متجاهلًا تحذير جدتي ألا أفعل هذا وأصرخ قبل أن أفارق وعيي كما يحدث دائمًا.

كان الأمر كارثيًا. وعلمت أنني فقدت وعيي لأسبوعٍ كاملٍ. ظلت الحمى تلتهم جسدي بلا انقطاعٍ وفمي يهذي بالخيالات المرعبة طوال الوقت بينما تحاول جدتي إبرائي مما حدثَ لي.

لقد ظفرت بي شياطين الموت القديمة. وكل من تصل إليه تلك الشياطين يموت. تعلم هذا جدتي لكنها لم تيأس. تبحث في كتب السحر القديمة وتستدعي ملوك الجان والشياطين سائلة النصيحة.

تريق من أجلي عشرات الدماء للحيوانات البرية دون جدوى. وفي كل لحظة تتزحزح روحي قليلًا نحو العالم الآخر.

أتحرك بينهم كالمومياوات ويهابني القط للمرة الأولى. ويتحاشاني إيزار برعب ويرتفع جسدي في الهواء وأصدر من حلقي أصواتًا شيطانية مفزعة. قبل أن أتهاوي ثانية نحو عالمي الغامض.

كل هذا وأنا في عالمي الغامض لا أعي شيئًا. تسقيني جدتي الأعشاب الغامضة وهي تقسم على الشياطين بعزائمها وطلاسمها فيزداد جسدي الذي نحل ارتجافًا.

كان كل شيء ينبئ بالفشل. لن يحتمل الصغير كل هذا وستلتهم الشياطين روحه قريبًا. وتبكي جدتي عجزًا وتنتحب. ولأنها لا تعرف اليأس تواصل البحث.

وبمصادفة غير مسبوقة تعرف ما عليها أن تفعله. تصطحب الجسد الضعيف نحو المقابر. وفي جوف قبرٍ تكفنني وترقدني. وتغلق الباب على كلينا وتبدأ طقوسها التي تنتهي بدمٍ حيوانيٍّ جديدٍ.

كانت جدتي ساحرة قوية. ساحرة تعلم من الأسرار القديمة ما لا يعلمه الآخرون. وكانت تسعى لاستعادة روح حفيدها الوحيد فباركتها الشياطين السفلية وساعدتها في مسعاها وأفقت لأجدني في ظلام القبر مكفنًا جوارها وهي تحتضن جسدي وتُتَمْتِم.

كنت واهنًا كالمحتضرين. كنت هزيلًا كضحايا المجاعات. وكنت فزعًا كطفلٍ تعبث به الأشباح والعفاريت.

حملنـي ايـزار للبيـت. ورويـدًا رويـدًا رحـت أسـتعيد صحتـي وعافيتـي لكـن فزعـي لم يضمحـل. مـا رأيتـه كان أبشـع مـن أن أنسـاه. وبعـد شـهرٍ سـألتني جـدتي السـؤال الـذي أعلـم أنها بانتظـار إجابتـه طـوال الوقـت.

- هل نجح الأمر؟

كانـت تسـألني هـل نجحـت في امتـلاك ذاكـرة ذلـك الرجـل الميـت. في الواقـع لقـد نجحـت في هـذا منـذ البدايـة. إننـي بالفعـل أعلـم مـكان تلـك المقـبرة الفرعونيـة بـل وأدري مقـدار مـا تحويـة مـن كنـوزٍ هائلـةٍ. كنـت أتمنـى لـو أخفـي الأمـر عنهـا وأخبرهـا أننـي لم أنجـح. لكننـي وأمـام نظراتهـا التـي تُعرينـي تحدثـتُ.. وأخبرتهـا بـكل شيء.

وهل كنت أقدر على إخفاء أمرٍ كهذا عنها؟

***

(5)

وتـأبى الليلـة أن تنتهـي. كفـت الأمطـار عـن هطولهـا وسـكنت الريـح قليـلًا فاسـتعاد الليـل سـكونه. أغـادر الفـراش وقـد فارقنـي النـوم وقـد بـدا لي أنـه لـن يـأتي أبـدًا. أفتـح النافـذة المبلّلـة وأعـب بعـض الهـواء النقـي البـارد الرابـض خارجهـا. يبـدو الجـو أكثـر صفـوًا وقـد غسـلته الأمطـار ولم تبـقَ بـه ذرة تـراب واحـدة والبيـوت جميعهـا سـاكنة لا حركـة واحـدة تنبعـث منهـا. أرمـق الأفـق السرمـدي المظلـم بخـواء ويعـاودني حنـين ورغبـة قديمـة في الذوبـان في أُفـقٍ كهـذا.

كـم تمنيـت أن تتبعثـر ذراتي وتختلـط بـذرات ذلـك الأفـق الرمـادي الغامـض وأن أصـير سرًّا آخـرَ مـن أسراره، أن أصـير ضبابًـا وأرتحـل مـع تلـك السـحب حيثـما شـاءت إلى أن أفارقهـا كقطـرات مـاء تنهمـر عـلى الأرض ثـم تمتصهـا لتدفـن للأبـد في جوفهـا.

تصفـر الريـح في بعـض الأرجـاء فأشـعر بالسـأم. وأعـود لداخـل الحجـرة وأسـتلقي ثانيـة عـلى الفـراش دون أن أتدثـر، وأغمـض عينـيَّ وأتذكـر.

وأعود بذاكرتي لتلك الأيام المخيفة التي ماتت فيها جدتي، ألن تمل ذاكرتي تقليب تلك الذكريات في هذه الليلة اللعينة.

يقولون إن من يلهو بالنار يكتوي يومًا بلهيبها. وكانت جدتي لا تعبث إلا مع النار.

كانت تمارس كل فنون السحر وطرقه المختلفة. بل وكانت بارعة في السحر الأسود. لقد عشت معها عشرة أعوام وليس عسيرًا أن أعلم خلالها ما الذي كانت تقوم به. وما كانت تقوم به رهيب بالفعل.

ينتشر بين السحرة المدعين والدجالين والأفاقين. بل لنقل إن أغلبهم كذلك. فمن بين كل مائة يدعون أنهم سحرة حقيقيون هناك ساحر واحد حقيقي والباقي كاذبون.

كلهم يوهم ضحاياه بقدراته وكلهم يختال بينهم فخرًا بقدرته على الاتصال بملوك الجان وأعوانهم. وأغلبهم في كل هذا كاذبون.

بالطبع كان هناك التنافس في النفوذ والسيطرة. كل منهم يبحث عن بسطِ سُلطانه في نطاق واسع يعمل فيه منفردًا. وفي سبيل هذا يلجأ لترهيب المنافسين وبث الإشاعات عنهم ومحاولة النيل من قدراتهم والتشكيك في ادعاءاتهم. بل وقد يصل الأمر أحيانًا للشجار واستئجار البلطجية لتأديب المنافس إن لم يرتدع.

وكان لجدتي الكثير من الأعداء. وكيف لا وهي قادرة على النيل من أيهم ودحض قواهم بيُسر.

كان هناك الحاج تيسير الأعور. ظهر بغتةً بالجوار وذاع صيته بقدرته على فك السحر وإبراء الممسوسين وتزويج العوانس

وجمع الأحبة وتفريق الأزواج وتطليقهم. لم تأبهْ له جدتي بل ولم تهتم بمتابعته. أخبرتني أن إحدى من فشل في تزويجها عن طريق حجاب صنعه لها. قد أتتها واستعانت بها وأرتها الحجاب. ففضته فلم ترَ به غير هراء لا معنى له.

إذا هو كاذب ومدّعٍ آخر دخل المهنة ولن يطول الوقت حتى يفضح كذبه. حدث هذا من قبل وسيحدث طوال الوقت، فلماذا تشغل بالها بهم؟

لكنه لاحقها. راح يشّهر بها ويردد أمام رواده ما ينتقص من قدراتها. ولـمّا لم يظفر من هذا بشيء وحين أدرك أنه لن ينال من جدتي هكذا لجأ للترهيب. جلب بعض البلطجية المدججين بالهراوات والخناجر والسنج، واتجه بهم في الظلام نحو شقتنا. كسروا الباب بغتة وتوقفوا في الصالة بتحفز وصرخ فيها مناديًا جدتي.

كنت صغيرًا حينها لم أتعد الثانية عشرة من عمري فلزمت حجرتي حينها، وقصت عليَّ جدتي ما جرى.

في البداية خرج إيزار من حجرتها ورمقهم بنظرته الجامدة للحظة قبل أن يشير لهم بإصبعه نحو الباب كأنما يأمرهم بمغادرة المكان. لا بُدَّ أنهم قد شعروا بالرعب من نظرته الجامدة ومن رباطة جأشه. لكن الحاج تيسير لم يكن ليتراجع الآن. فصرخ فيه بصوتٍ حاول أن يبدو متماسكًا:

- استدع العجوز الدجالة يا هذا أو ينال منك رجالي.

وخرجت جدتي من حجرتها. رأتهم فابتسمت وتقدمت إيزار وهتفت ساخرة:

- إذا فقد أتيت إلى داري بصحبة هؤلاء الصبيان يا تيسير.

- عليكِ أن تكفي عن أعمالك وأن تغادري هذا المكان.

- وماذا لو لم أفعل. هل ستسحرني سحلية أم ستكسر رأسي.

- سوف أُسلِّط عليك أعواني من الجان وسوف يحطم رجالي رأسك ورأس تابعك الأخرس هذا.

وتضحك جدتي وتهتف:

- ولماذا لا تفعلون. ها أنا إيزار أمامكم. هيًّا تقدموا واكسروا. ماذا تنتظرون أيها الصبية؟ هيًّا افعلوها.

واضطرب رجاله للحظة وكان هو أكثرهم اضطرابًا. سخريتها ولا مبالاتها زادته اضطربًا لكن التراجع كان يعني المذلة، لم يكن هناك مَفَرٌّ من القتال فصرخ في رجاله:

- اهجموا يا رجال. هشّموا عظامها وحطموا المكان.

ارتفعت العِصي وخرجتْ الخناجر من مساكنها واندفع الرجال الخمسة. ولم تتحرك جدتي. فقط تحرك إيزار. وكانت الصرخات مريعةً لا تُحتمَل والعظام تتكسر والأرجل تتهشم والأعناق تدق. وفي أقل من دقيقة تكوم الرجال الخمسة وصرخاتهم لا تنقطع. حمَلَهم إيزار وألقاهم خارج البيت ثم أغلق الباب. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي نسمع فيها عن الحاج تيسر الأعور هذا.

لم يكن وحده من فعل. فقد كان هناك الشيخ رجب. شابٌ صغير لا يتعدى الخامسة والعشرين من عمره راح يعتلي منابر المساجد وقد أطلق لحية غير منتظمة. العجيب أنه اقتحم منطقة جدتي فراح

يعالج الممسوسين بالرُّقَى الشرعية والقرآن كما يزعم. وبعد حين شعر أن جدتي ربما تمثل تهديدًا لسُلطانه المتنامي فراحَ يهاجمها.

يعتلي المنابر فيؤلب الناس على الدجالين السحرة متهما إياهم بإفساد العباد والكفر وعبادة الشياطين. وفي مرة أقسم في محاضرة له يلقيها في السجد كل ثلاثاء بعد صلاة العشاء، أنه يعلم أن جدتي تقوم بالسحر وتستعين بالشياطين في عملها وأنها من أجل إرضائهم تلقي بالمصحف في الحمَّام وتدوس عليه بل وأيضًا تتبول عليه أحيانًا. وبذهولٍ لا حَدَّ له رحت أتابع كيف راح يبكي وينتحب حزنًا على كتاب الله الذي يهان في بيت إحدى الساحرات وكل من حوله يحوقلون ويلعنون.

كدت أفقد وعيي رعبًا. إنه يتحدث عن جدتي حديث لا أصدق أنها تفعله، بل ويقسم على هذا. لا أدري ما مصيري في تلك اللحظة لو انتبه أحدهم أن حفيدها يجلس بينهم في المسجد في تلك اللحظة ولا أعلم كيف يمكنني مقاومة غضبهم الذي يؤجِّجه ذلك الشيخ. وعلى أطراف أصابعي تسللت من بينهم وأنا أتمنى لو أصير خفيًا.

أخبرت جدتي فراحت تضحك طويلاً، ثم هتفت بلا مبالاة:

- دعك منه، إنه شاب أرعن أحمق.

لكن الشاب الأحمق لم يكف وفي صلاة الجمعة التالية راح يدعو المصلين لطرد المشعوذة الدجالة من بينهم. عليهم أن يثأروا لكتاب الله، وعليهم أن يقيموا الحد على الساحرة. لا أدري حينها كيف علم بأمري وكيف أشار بإصبعه نحوي بغتة ثم صرخ بالمصلين:

- ها هو ابنها بيننا، إنه لم يأتِ للصلاة كما يبدو. لقد أتى

ليتجسس. أتى ليدنس بيت الله. إنه نجس كجدته. اطردوه من المسجد ولا تسمحوا له بالعودة ثانية.

كان هذا الفعل أقسى ما لقبته في حياتي. وعقد الذهول لساني فتجمدت مكاني. تحمس بعض الشباب وغالبيتهم من أصحاب اللحى فاندفعوا نحوي وحملوني ليلقوني خارج المسجد. ما أفزعني أن أحدًا مما يعرفني جيدًا لم يندفع للدفاع عني حينها. كُلٌّ لزم الصمت وتركني لمصيري. وقهرًا وقد وصلت الباب محمولًا رحت أقاوم وأصرخ:

- إنه كاذب. أنا أصلّي طوال الوقت. جدتي ليست كافرة. إنه هو الكاذب.

وتوالت الصفعات والركلات واللكمات على كل جزء من جسدي. لقد كان هذا وقت تأديب المشعوذين أيها الشباب. في الحقيقة لقد فعلوا كل ما أمكنهم كي يكون عقابي شنيعًا.

كسروا ضلع لي وامتلأ وجهي بالكدمات وأظلم العالم في عيني واجتاح الألم جسدي كله حتى تمنيت الموت. لو حاربوا الكفار بمثل هذه القسوة لاتهموا بالمبالغة. لا أدري مَن ساعدني للعودة للدار لكن جدتي كانت غاضبة بحق. صوتها تبدَّل وصار مخيفًا في هذا الوقت حتى إنني رغم آلامي ارتجفت. وغمغمت بتصميم:

- لقد تمادى ذلك الأفاق وتجاوز كل حد، سوف أجعله يندم.

وبعد أيام علمت أنه قد ندم. ندم كثيرًا وبصورة فاقت كل آمالي.

لقد أتى لجدتي لتعالجه مما ألم به.

هل تصدقون؟

هذا بالفعل ما حدث.

سكن جسده الجان وراحت النيران تشتعل في كل مكان حوله فاحترق منزله. أصابه الصرع وتملكته الأوهام والضلالات فصار يهذي ويهلوس طوال الوقت. ساء حاله واحتار الأطباء والشيوخ في علاجه. ولما يئس تذكر جدتي.

شعر أنها حتمًا مَن تسبب فيما يعانيه. ولما لَم يحتمل أتى إليها طلبًا للمغفرة وبحثًا عن الشفاء. لكن جدتي لم ترحمه. أعلم أنها لم تفعل. وبعد حينٍ غادر المكان كله وعاد لقريته تلازمه شيطانيه وضلالاته، ولم أسمع عنه هو الآخر ثانية.

لكن أم الدواهي كانت أمرًا آخَرَ. وقد حملت من اسمها الكثير. كانت أكثر من رأيت دهاءً ومكرًا، وكيف لا أنعتها بهذا وقد كانت من تسبَّبَ بقتل جدتي.

قبل خمسة أعوام ظهرت في البيت بغتة. امرأة ريفية بدينة تخطت بلا شك منتصف العمر بأعوام عدة، وأخبرتني جدتي أنها ستمكث معنا في البيت. وكالعادة لم أُحِبها هي الأخرى مثلما كرهت القط الأسود وإيزار. كانت تعمل بهمة ورأيت كم تخشى إيزار وكيف لا تقربه.

علمت أنها تتعلم فنون السحر على يد جدتي. لا أفهم ما الذي دفع جدتي لقبولها ولا لماذا تعلمها أسرارها. كان هناك نفورٌ خفيٌّ ينمو باضطراد بيني وبينها ورغم أنها تبالغ في التودد إليَّ وفي تلبية مطالبي إلا أنني لم أحسن الظن بها أبدًا.

تبدو داهية خبيثة رغم بلادة جسدها وعينيها الضيقتين. وتزهو جدتي وهي تقول لي:

- الفتاة الأريبة تتعلم سريعًا. لن تمكث طويلًا معنا.

أبوح لها بمخاوفي قائلًا:

- أرى أن تحاذري منها. لا تروقني نظراتها. أشعر أنها تضمر في جوفها ما لا تبديه.

وتضحك جدتي ثم تسعل وبعدها تواصل حديثها:

- وما العجيب في أن تكون خبيثةً متشبعة للشر. لقد أتت لتتعلم فنون الشعوذة والدجل. إنها ليست قديسة إذًا.

- هذا أدعى أن تحاذري منها. صدقيني يا جدتي. أنا لا أحبها.

لكنها كعادتها تشيح بكفها العظمي ذي الجلد المتجعد وتقول بلا اكتراثٍ:

- لا تقلق بشأنها. إنها بحاجة إليَّ ومهما تعلمت فلن تصير مشكلةً لي. يمكنني التخلص منها متى شئت.

وتمضي الأيام والشهور وهي لا تفارق البيت. تخدم جدتي وتلازمها كظلها ولا أمل من مراقبتها. وبعد حين رأيت ما يريبني. تعلمون أن جدتي تغادر مساء كل خميسٍ البيت ولا تعود قبل ظهر الجمعة. وفي ذلك اليوم وكما تفعل من حينٍ لآخر اصطحبت قطها الأسود وإيزار معها. وقرب منتصف الليل شعرت أن هناك من يتحرك بالصالة. علمت أنها أم الدواهي لَكِنَّ هاتفًا غامضًا دفعني للخروج لأرى ما تفعله.

وبخفة ودون أي صوت فتحت الباب ثم بحثت عنها. كانت في غرفة جدتي وكان الباب مواربًا والمصباح الكهربائي مشتعلًا وكانت أمام الخزانة تفتشها بحماسٍ.

شعرت بالغضب. هل تفكر تلك اللئيمة في السطو على جدتي؟ وبغضبٍ هتفت بها:

- ماذا تفعلين؟

ارتبكت واهتز جسدها البدين وسقط شيء ما من يدها. والتفت نحوي بعينٍ واسعة بها بعض الغضب وهتفت متلعثمة:

- لا شيء. لا شيء.

- إذا ماذا تفعلين هنا؟

رمقتني وفكرة ما تتلاعب في عينيها ثم تحركت نحوي. راقبتها بحذرٍ حتى صارت قبالتي ورأيت شفتيها تتمتمان بشيءٍ غامضٍ. وكنت أحمق حتى إنني لم آخذ حذري أو أبتعد عنها. كان عليَّ أن أدرك أن أمرها قد كشف وأنه لا جدوى من التظاهر بغير ذلك الآن.

وسحرتني بسحرها فمسحت ذاكرتي تمامًا.

ثم هربت من البيت بمخطوطات جدتي وكتبها. وحين عادت جدتي أدركت الفاجعة. عالجتني بسحرِها وقد كان الأمر يسيرًا، طالما يتعلق بالشعوذة، ثم اتجهت لبلورتها وراحت تقسم عليها وتصيح بعزائمها لتخبرها أين اختفت اللصة أم الدواهي.

علمت مكانها فجهزت عدتها وغادرت المكان بصحبة إيزار، وغابت ليومين قبل أن تعود بأشيائها ظافرة. سألتها عن أم الدواهي فأجابت باقتضاب:

- سيمنعها شلل طرفيها من الحركة طوال الوقت. لقد استحقت تلك الغبية نقمتي وانتقامي.

لم أشعر بالشفقة عليها ولو للحظة، ومرت الشهور والسنين فنسيتها.

وتقدَّمَ الزمن بجدتي وافترسها الهرم والعجز والمرض حتى امتنعت عن استقبال الناس ولزمت حجرتها. كنت أدخل عليها كل حين فأدرك أن العجوز قد أصاب العطب عقلها. صارت تنسى ما تفعله. صارت تفعل أشياءَ غريبة وصارت تحدث كائنات خفية لا وجود لها.

وفي منتصف الليل يأتيني من حجرتها ضوضاء عنيفة قبل أن تصرخ. أهرع نحو حجرتها لأجد بابها مغلقًا من الداخل بإحكام وإيزار يدفعه بكتفه بجنونٍ كي يفتح. ندخل الغرفة ليفاجئنا الدخان الكثيف وجدتي الراقدة على الأرض في إغماءٍ والدم يسيل من كفها الأيسر. أتتبع منشأه لأكتشف أن هناك أصبع قد تم بتره.

وبينما أصرخ فيها وأحاول إيقاظها كان إيزار أكثر عملية فقام بتضميد كفها بهدوءٍ ثم حملها إلى الفراش. وحين تستيقظ أرى الحيرة في مقلتيها. أسألها مَن فعل هذا بك، فتُجيبني بوهنٍ:

- لا أذكر، لكنها النهاية يا بني.

وتبدأ الشياطين في المرح في المكان. أستيقظ في منتصف الليل فأجد من يقف فوق رأسي في الظلام وهو يحدق فيَّ بثباتٍ. وحين أضيء الضوء لا يكون هناك. ثم تشتعل ملابس إيزار بغتة وبالكاد

ينجح في إطفائها. يخلع ملابسه فأرى بقعةً ضخمة من الجلد المحترق تغطي ظهره.

وتنطلق الصرخات الرهيبة مجهولة المصدر في البيت. وأشعر بعشرات الأشباح من حولي وهي تصطدم بي في كل مكان.

ثم بدأت الحرائق.

المرة الأولى كانت في حجرة جدتي. كنت حينها في الحمّام ورأيت النار حين غادرته. أسرعت لنجدة جدتي. كان الحريق مُمسِكًا بأحد ساقيها وكانت ترمقه بخواء وكأن من يحترق بالنار أحد غيرها. صرخت فهرع إيزار إليَّ وألقى على ساقها بطانية كتم بها النيران. ثم راح يطفئ الأغراض المشتعلة حولها. رقدت جدتي على الفراش بإعياء قبل أن تقول بوهن:

- ماذا هناك؟ ما الذي يحدث هنا؟

كانت رائحة الشياط واحتراق جلدها عنيفة الآن، فشعرت بالاختناق ورأيت كيف تفحم ساقها الأيسر تمامًا. فرحت أبكي قبل أن أقول:

- ما الذي يجري يا جدتي. ماذا هناك ولماذا يحدث هذا لك.

ويتولى إيزار تضميد الساق المتفحمة دون جدوى وألزم حجرتها طوال الوقت عسى أن يتكرر الأمر ثانية. وحين غفلةٍ مني وقد غلبني النعاس أستيقظ لأرى جسد جدتي عاريًا كيوم ولدتها أمي وهي مقيدة للفراش وهناك شبحٌ أسود يفعل في أناملها شيئًا ما لم أتأمله. أصرخ فيه فيلتفت إليَّ بوجه أسود بلا ملامح ويصدر فحيحًا كفحيح الثعابين ثم يندفع نحو الحائط فيختفي به.

أهـرع لجـدتي وأغطيهـا وأرى الأنامـل السـوداء اليابسـة تمامًـا. مـاذا فعـل ذلـك الشـيطان بجـدتي؟ ويـأتي إيـزار ككل مـرة ويرمـق أناملهـا السـوداء بحـيرة ولا يفعـل هـذه المـرة شيئًا.

لا أدرى مـن يمكننـي أن أسـتعين بـه ولا مـاذا يحـدث هـذا لجـدتي، وأتسـاءل هـل ضعـف تحكـم جـدتي بالسـحر والشـياطين وقـد حـان وقـت العقـاب ودفـع الثمـن.

وفي اليـوم التـالي أسـتيقظ عـلى طرقـات بالبـاب. أتجـه لفتحـه وأنـا آمـر إيـزار ألا يـترك جـدتي بمفردهـا.

وهنـاك كانـت أم الدواهـي أمامـي. كانـت سـليمة مـن غـير سـوء وعـلى شـفتيها ارتسـمت أكـبر ابتسـامة خبيثـة لئيمـة رأيتهـا في حيـاتي. كيـف برئـت مـن شـللها الـذي أخبرتنـي جـدتي بـه وهـل أتـت لتشـمت بهـا. شـعرت بالحنـق فقلـت بخشـونةٍ:

- ماذا تريدين؟

- علمت بما جرى لجدتك فأتيت لأعودها.

كيـف علمـت بـما لم نخـبر بـه أحـدًا. وهـل لهـا يـدٌ فيـما يجـري مـع جـدتي؟. وتـبرق عيناهـا كأنـما تقـرأ مـا يـدور بعقـلي، قبـل أن تقـول بصـوت كالفحيـح:

- لقـد آذتنـي يـا شريـف بشـدة. لـن تفهـم أبـدًا مـاذا يعنـي أن يصـير المـرء عاجـزًا مشـلولًا.

- لكنك قد سرقتها قبل ذلك وطعنتها في ظهرها.

- وقد أذلتني بعدها كثيرًا، وها قد حان وقت الحساب يا فتى.

واشتعلت عيناها بتشفٍّ وأنا أرتجف في فزعٍ أمامها واستطردت:

- علمت بأنها لم تعد كالسابق. تقوم بعمل التعاويذ الخاطئة وتستدعي الجان ولا تصرفهم. لم أكن يومًا حمقاء ولا غبية. لقد تعلمت منها الكثير وعرفت بعد ذلك ما هو أعظم. لقد ضعفت قوتها ووهن تأثير سحرها فعرفت كيف أعالج نفسي من سحرها. ثم رحت أفكر كيف أنتقم لنفسي.

وأطلقت ضحكة ساخرة صاخبة لم أسمعها منها من قبل وأنا لا أدري بما أجيبها قبل أن تُكمِل:

- أخبرني أعواني بما يفعلونه بها. إنها تحترق وتتعفن حية أليس كذلك. لا تدري كم يطربني هذا وما زال في جعبتي المزيد. العجوز الشمطاء ما زال بانتظارها الكثير من المرح الذي يمكن أن أوقفه وأن أدعها تموت في هدوءٍ لو عقدنا صفقة صغيرة.

- ماذا تريدين؟

- كتبها ومخطوطاتها وأغراضها. كل شيء تملكه. أعطني تلك الأشياء وسأدعها وشأنها.

في الواقع لا تهمني تلك الأغراض ولا أعتقد أنها ستنفع جدتي ثانية. هي أغراض سأتخلص منها يومًا ما بلا شكٍّ. لكنني كذلك لا أثق بتلك الشيطانة قيد أنملة. ما أدراني أنها لن تؤذيني بعد ذلك وما أدراني أنها ستكف شرها عن جدتي بعد. لن ترث جدتي أبدًا وقد آذتها هكذا ووجدت نفسي أصرخ في وجهها بغضب.

- اذهبي للجحيم. لن تنالي شيئًا ما دمت حيًا.

وأغلقت الباب في وجهها ومن خلف الباب وصلني تهديدها:

- بل جدتك من سترى الجحيم قريبًا وأعدك أن تلحقها بعد ذلك.

وعدت لجدتي أرتجف. كان ترمقُ الغرفة بخواءَ فقلت لها باكيًا:

- إنها الثعبان الذي ربيته في المكان يا جدتي. إنها اللعينة أم الدواهي. إنها من يفعل بك كل هكذا. طالما حذرتك منها لكنك لم تستمعي إليَّ. ليتك فعلتي يا جدتي. ليتك فعلتِ.

وبرقت عيناها بغتة وقالت بصوتٍ به بعض الحيوية:

- أم الدواهي؟! توقعت هذا يا بني. هذا يعني أن عليَّ التحرك بسرعة

وهبت من الفراش فصحت بها محاوِلًا منعها وقد اعتقدت أنها تهذي كالعادة، لكنها قالت في حزمٍ:

- لا تقلق يا بني. عليَّ أن أقوم بحمايتك يا فتى. لن ينتهي الأمرْ بموتي ولو لم أتحرك الآن فربما آذتك.

وابتلعت ريقها بصعوبة وأكملت بابتسامةٍ واهنةٍ:

- حان الوقت لتعلم تلك اللعينة أن الحية العجوز لا زالت تملك بعض السم في أنيابها.

ونادت إيزار فهرع يساعدها. رسم على الجدران الكثير من الرسوم والنجوم والمثلثات. امتلأ المكان بالبخور والدخان وعاد صوت جدتي قويًا وهي تُردِّد تعويذتها الأخيرة. وبعد أن انتهت تهالكت على الأرض.. حمَلَها إيزار وأعادها للفراش فقالت لي:

- الآن لن تقدر عليك. لكن حافظ على أغراضي، إياك والتفريط فيها. إنها ميراثك فلا تتركه لأحدٍ. عدني بهذا يا شريف.

ووعدتها.

وفي اليـوم التـالي اشـتعلت بهـا النـار بغتـة. تحـول جسـدها في لحظـة لأتـونٍ محـترقٍ. الغريـب أنهـا لم تمـت عـلى الفـور. بـل صرخـت مـن بـين النـيران المتأججـة، وهـي ترمقنـي بعيـون بـارزة باتسـاعها:

- سأعود ثانية لأنتقم.

وذابـت عيناهـا وذاب جلدهـا وماتـت. وكـما اشـتعلت النـيران بغتـة خبـت مـرة واحـدة دون أن تمـس أي شيء حولهـا. وعـلى الفـراش رقـد جسـد جـدتي مسـودًا متفحـمًا. وأتـى إيـزار ومـن خلفـه القـط الأسـود. رمقـا الجسـد الهامـد للحظـة ثـم غـادر إيـزار المكان دون أن يفعـل شـيئًا بينـما اختفـى القـط مـن أمامـي.

ثم دفنت جدتي في بلدتنا الريفية القديمة، واختفى إيزار تمامًا.

طالمـا تمنيـت الانتقـام لجدتي مـن تلـك الداهيـة . ومـا زلـت أتذكـر وعيـد جـدتي بالعـودة.

ترى هل تعود حقًا؟

من يدري!!

***

(6)

وما زالت الليلة الكئيبة جاثمة على روحي تأبى الرحيل. أخوض مع النوم معاركي الخاسرة دومًا، فلا النوم يأتي ولا عقلي يهمد. يسطع البرق بغتة خلال النافذة الزجاجية فأرى عشرات الظلال التي تتوارى خلفها منذرة ومترقبة، ويدوّي الرعد كقرع عشرات الطبول البدائية، فأنتفض بلا سببٍ، ويظل قلبي يضطرب. ممَ أخاف؟

أسأل نفسي وأنتظر أن تأتي السَّكينة مع الإجابة، وأدرك أنني لا أهابُ شيئًا. أو لنقُل أنني لم أعد أخشى أيَّ شيءٍ. قبل زمنٍ كنت أخشى كلَّ شيء. الظلام والظلال والنداءات الغامضة في جوف الليل وذلك المجهول القادم من خلف الأبواب المغلقة، بل وحتى الجرذان الحقيرة المتأهبة لقضم حنجرتي أو إصبع من قدمي، والكلاب الضالة التي تطاردني في الشارع ليلًا.

كنت أخشى الموت وأنا أستعيد وجه أبي البارد الشاحب الخالي من الحياة وأنا بمفردي معه في حجرته ولا أدري أنه لا يجيب ندائي لأنه قد مات.

يلمع البرق ثانية ويدوي الرعد، ومن خلف الباب المغلق بإحكامٍ تأتي طَرقَات بيد رقيقة، ويتبعها النداء:

- شاكر، لماذا تغلق الباب، أريد أن أقضي الليلة معك.

إنه صوت ريم. حبيبتي وزوجتي. في وقتٍ آخر لم أكن لأنام من غيرها أو أفارقها لحظةً واحدةً وقد تزوجتها. لكن هذا لن يكون الآن.

أنتفض في فراشي وأنا أدرك أنني من تسبَّب في ضياعها، و أنني من أفسد كل شيء.

ففي النهاية صارت ريم زوجة لي، ورغم هذا لا يمكنني أن أقربها أو أحتضنها!

كيف يمكنني أن أفعل وفي جوفها تستقر روح جدتي الراحلة. لقد ذهبت روح ريم الشابة وأتت روح جدتي الملعونة لتحتل جسدها وتزيحها منه.

وأنا من تسبَّبَ في كل تلك الفوضى

وعاد عقلي ليمارس هوايته الأثيرة.

عاد ليتذكر!

بدأت النهاية باتصالٍ غاضبٍ مليءٍ بالرجاء. كانت ريم وراحت تنتحب وهي تصرخ عبر الهاتف:

- أنت في مكانك لا تتحرك ولا تفعل أيَّ شيء. بل تكتفي بتركي في وجه المدفع لأواجه طلقاته وحدي. لقد سئمت هذا.

- وأنا لست أفهمك. تحدَّثي بهدوء من فضلك كي اعي ما تتحدثين عنه. ماذا هناك؟

- يريدون إنهاء ارتباطنا. هل فهمت. يرغب أبي وأمي في فسخ الخطوبة.

كانت هي المرة الألف التي يحدث فيها هذا. لم تكن خطبتنا أبدًا مما يروق لهم. لا يروقهم ملابسي وهندامي، ولا تحب أمها حديثي الذي تراه شعبيًّا ينتمي للحواري والأزقة، ويراني أبوها مفلسًا تافهًا لا شأن له أو مستقبل، وهو لا يدري أن معي من مال جدتي الذي لا اقربه أكثر مما معه بكثير.

كان أبوها يعد ارتباط ابنته الوحيدة بي ضياعًا لمستقبلها. في الواقع لولا دلالها وعنادها وتمسكها بي لما استمرت العلاقة بيننا يومًا واحدًا. لكنهم لم ييأسوا. وطوال الوقت كانوا يرمونني بالسخافات ويعاملوني بجفاء لا يداروه.

- وما الجديد هذه المرة؟ عريس آخر؟

قلتها بنفاد صبر، فأجابت بغضبٍ أكبر:

- وكأنك لا تبالي. حسنًا سأخبرك بالجديد لكني لن أدافع عنك بدلًا منك هذه المرة. سأرى ما سوف تفعله. لقد وصلهم أن جدتك كانت دجالة تمارس السحر. لقد سألتني أمي هل كنت أعلم. صمتُّ ولم أدري بما أجيب.

يا إلهي. متى ينتهي هذا العناء. ما شأني أنا بجدتي وما جريرتي

في أن تكـون الشـيطان نفسـه. أنـا شيء وهـي شـأن آخـر. متـى يكـف النـاس عـن محاسـبة الأبنـاء في جرائـم آبائهـم.

- أخبريهم أنها قد ماتت منذ عامين.

- ومـا أدراك أننـي لم أفعـل. لكـن أبي أقسـم ألا يتـم ارتباطنـا بعـد هـذا اللحظـة واحـدة. سـوف يتصـل بـك لتـأتي لاسـتعادة هدايـاك وأشـيائك.

- لـن آخـذ شـيئًا، ولـن أتـركك. سـوف أتزوجـك رغـمًا عنهـما لـو اعترضـا طريقنـا.

- إذا أخبرهما بهذا بنفسك. برهن لي أنك تُريدني.

وتغـرق في نحيبهـا. تعـودت أن أدعهـا وشـأنها حـين تفعـل. تعلمـت أن أنتظـر حينهـا حتـى تنتهـي مـن بكائهـا وتعـود لرشـدها. في الواقـع تفقد ريـم تعقلهـا حـين تغضـب وتصـير أقـرب للجنـون لـو بكـت ولـن تـسر أبـدًا بـما ستفعله معـك لـو حدثتهـا في ذلـك الوقـت أو حاولـت تهدئتهـا.

انتظـرت بضـع دقائـق حتـى هـدأت فسـألتها السـؤال الـذي جـالَ بخاطـري:

- لكن من أخبرهما بشأن جدتي؟ هل عادا للسؤال عني.

- إنهـا امـرأة عجـوز كريهـة. عـدت مـن الخـارج لأجدهـا معهـما. رمقتنـي بعنـين مرعبتـين مظلمتـين وابتسـمت في وجهـي بفـم بـلا أسـنان ابتسـامة لم أحبهـا، قبـل أن تواصـل حديثهـا إليهـما. فكـرت ان ألـوذ بحجـرتي حتـى تذهـب لكـن أمـي نادتنـي وطلبـت إليَّ الجلـوس إليهـم، ففعلـت. ظلـت تتحـدث أن جدتـك كانـت كريهـة، وكيـف

كانت دجالة، وظلت طوال الوقت تمارس السحر والشعوذة، كان الغضب حينها يغمر أبي وفي النهاية أشارت إلى أنها تعتقد أنك تواصل -سِرًّا- عملَ جدتك. ألقت قنبلتها تلك في وجوهنا وانتظرت للحظة قبل أن تقول بمكر، أنها غير متأكدة من هذا الأمر لكن البعض يؤكده.

اشتعلت نفسي بالغضب، مَن تلك الشيطانة التي تسعدها كما أرى أن توقع بيني وبين حبيبتي هكذا. ما شأنها بي ولماذا تزعم أنني أمارس السحر وما جدوى محاولاتها تلك. أشعر بالاختناق وتحتبس الكلمات في حلقي ويصلني أنفاس ريم المتلاحقة توترًا. ومرة واحدة تقفز جدتي إلى مخيلتي. وأقول على الفور:

- هل يمكنك يا ريم أن تصفي لي تلك المرأة؟

- كانت طاعنةً في السن. أظن انها تجاوزت الثمانين من عمرها. قصيرة الجسد متهالكة الجسد تتكئ على عصا لها مقبض غريب وترتدي جلبابًا كثير الألوان الزاهية.

كأنها تحدثني عن جدتي. وأسألها بانفعالٍ:

- وهل كان على كفها الأيسر وشم طائر أزرق؟

- بالفعل كان هناك واحد؟ كيف علمت هذا؟ هل تعرفها؟

ويسقط قلبي في قدمي. إنها جدتي. أو لنقل إنه شبحُها أو أحد شيطانيها وقد تشكل على هيئتها. أشعر بالقهر والضعف ولا أفهم ما الذي تصبو إليه هذه المرة ولماذا تلاحقني من قبرها هكذا.

لماذا لا تدعني لحياتي؟ ولماذا لا تقنع بموتها كما يفعل البشر أجمعين؟!

لماذا تريدني أن أمارس عملها الذي انتهى بموتها، ولماذا تعتقد أن عليَّ أن أكمل عمل العائلة وأن أمارس السحر كما فعل الأسلاف منهم. لقد فعلوه برغبتهم الكاملة كما أعتقد، ومن حقي أن أقرر مصيري مثلهم وقد فعلت. لن أقوم بالأمر وسأرفضه كاملًا كما رفضه أبي من قبل.

لكن هل كان هذا موقف أبي حقًّا وهل هي رغبته؟ يراودني الشك وأنا أراه في كل يوم في أحلامي يحثني على طاعة جدتي. وأستيقظ كل مرة وأنا غير مصدق. هل يكون هذا الذي يلازم أحلامي أبي حقًّا؟ أيكون هذا أبي الذي اعتزل أمه كل هذه السنين حتى مات بعيدًا عنها كي لا يشاركها الأمر. أيغير الموت قناعات المرء أم أن الأمر كله خدعة وألعاب شياطين تتمثل بصورة أبي وتزورني في أحلامي لتقنعني بما لن يكون؟

وأذهب إلى بيت ريم. الأب المتحفز والأم المتنمرة والصراخ الذي لا ينقطع، وأشيائي التي تلقى في وجهي ثم الطرد. كل هذا بلا ذرة تعقل واحدة.. كل هذا وريم على باب حجرتها ترمق ما يدور بعجز، ودموع لا تنقطع، وصمت مرير.

أتحرك في الشارع بلا هدى، أشعر بغتة بغربة لا حد لها رغم أنني أنتمي لهذا العالم. أفتش في وجوه الناس عن سعادة لا أجدها في نفسي وأرمق المحبين من حولي في حسرة من لن يعيش تلك اللحظة ثانية.

وفي نهاية الشارع الطويل وعلى ناصيته كان إيزار بانتظاري. يلتصق ظهره بالحائط وقد عقد ذراعيه أمام صدره وراح يرمقني بعينيه الزجاجتين بثبات. هذه المرة حرَّكَني الغضب نحوه، وقد أزمعت الشجار. ما الذي يفعله هذا اللعين هنا ولماذا يلاحقني هو الآخر، وهل وصلت جدتي إلى بيت خطيبتي عن طريقه؟ أسئلة عليه أن يمنحني جوابها. تناسيت جسده الضخم وقوته المذهلة وأفعاله الشيطانية التي طالما أرهبتني وأفقدني الغضب كل تعقل وقررت الشجار. أمسكته من ياقته وقد انتبه السيارة إلينا وصرخت فيه:

- أخبرني بما تريده أنت الآخر. لماذا أنت هاهنا؟

ترتجف عيناي من عينيه الميتتين اللتين لا ترمشان ومن وجهه الجامد كالخشب وألهث في توتر وما زلت قابضًا على قميصه ثم يتحدث، لا يفعل هذا أبدًا ولا ينطق حرفًا واحدًا، لكني أعلم أنه ليس أخرسَ:

- وعَدتَ جدتك أن تعيدها وهي تنتظر. إنها تحذرك أن تخذلها هذه المرة!

جدتي.. جدتي.. في كل مرة هي جدتي.

إنها ميتة والموتى لا يعودون. فأي شيطان رجيم هذا الذي يتلبس روحها ويرغب في عودتها، كيف يتصل إيزار بها وكيف تجسدت أمام أهل خطيبتي لتثير سخطهم عليَّ، ولماذا لا تبحث عن آخر يعيدها ويكمل عملها؟

يزيح إيزار كفي عن قميصه ببساطة ثم يدخل الشارع

المجاور. أتجمد بمكاني لحظة ثم أتحرك حيث سار. لكن الشارع الطويل كان فارغًا منه. لقد اختفى فيه كأنما تبخر في الهواء.

لا أجد في نفسي رغبة في الخروج من البيت، وأتجاهل أي اتصال من أصدقائي. أرقد على فراشي وأحاول أن أفكر في حلٍّ يعيد ريم إليَّ. لا أتخيل أن أستمر في الحياة من غيرها، ولن أحتمل فراقها. لكنها لم تتمسك بي هذه المرة. لم تعترض على ما قام به أبواها ولم تشاركني الدفاع عن نفسي ولاذت بصمتها.

هل وافقتْهما فيما يريدان؟

وهل صدقت تلك الوشاية اللعينة عني؟

يفنيني التساؤلات وأجرب الاتصال بهاتفها لأجده مغلقًا. أجرِّب مرة بعد مرة دون جديد. أركل الأغراض من حولي بغل ويردد الصدى صراخي المجنون وأنا أسب جدتي:

- «عليك ألف لعنة أيتها العجوز الشمطاء.. أجل.. عليك اللعنة»

لكن الصمت من أجابني.

ينهكني التفكير فألجأ للنوم الذي أتاني متعجلًا هذه المرة، كأنما كان ينشدني.

وكانت جدتي في الحلم، أصرخ فيها:

- ما الذي فعلتِه بي أيتها اللعينة؟

وتجيب بغضبٍ مماثلٍ مهدِّدٍ:

- لقد نكثت بعهدك لي. أنقذتك من مثيلك يومًا ووعدتني باستكمال ما كنت أقوم به. هل نسيت؟

لكنني لا أبالي كما لم أنسَ. ليتني ما وافقتها في تلك المرة. ليتها تركتني للفناء والعدم. ليتها تركتني كي لا ألاقي هذه الآلام التي تعصف بي... وأقول ودموع تنحدرُ:

- لكنك دمرتِ حياتي، لماذا تفعلين كل هذا بي؟

وتضحك بجنونٍ وقد انتفش شعرها الفضي الثائر حولَ وجهِها فصارت كالغيلان، وتقول لي:

- هذه هي البداية فقط. وما زلتُ أخبئ لك المزيد. هذه المرة لن تذهب وتموت بغيرِ ألمٍ. هذه المرة سيكون الألم كثير.

وينتفض قلبي في صدري ويثور. وأشعر بالرعب وقد أخرجت من جرابها دمية بلاستيكية جامدة. تدير وجها نحوي لأدرك أنها تشبهني تمامًا. تلقيها في وجهي وتقول بصوت كالفحيح:

- هذه ستكون أنت.

أتراجع للخلف وأرى الدمية تتمدد بغتة. تستطيل أطرافها وتتضخم رأسها وتتحرك عيناها الزجاجيتان نحوي. وأصرخ حين تحدثني بغتة:

- لقد عدت يا شريف، هل تذكرني.

لقد تحولت لصورتي تمامًا ودبت بها الحياة. وبينما تتحرك نحوي أشعر بهلعٍ لا حدودَ له فأصرخ. وأفيق لأدرك أني ما زلت على فراشي. أرقب الظلام للحظة ثم أنهض لاهثًا. أتحسَّسُ شيئًا جامدًا يرقد على الفراش بجواري وأشعر أني أعرفه.

أضيء المصباح وأكتشف أنني أقبض على دمية بلاستيكية تشبهني. نفس الدمية التي ألقتها نحوي جدتي في الحُلم. ألقيها بعيدًا فتوارت أسفل الفراش وما زلت أنتفض، وأدرك الكارثة.

لقد جاءت الدمية من حلمي.

صارت الكوابيس حقيقية وها هي تتجسد. يطول ترقبي للدمية التي اختفت، ثم أنحني أسفل الفراش لأفتش عنها. لم تكن هناك. اختفت ثانية ليزداد رعبي. هل توهمت تلك الدمية وهل صرت أهذي أم أنها كانت موجودة بالفعل.

أشعر أنني أقترب من الجنون حثيثًا وأفكر في الانتحار. الموت وحده يحمل الراحة والهروب من تلك الحياة القاسية. لكن الانتحار كفرٌ ولن أهرب من هذا العذاب إلى الجحيم الحقيقي.

تتكرر الأحلام وفي كل مرة أرى أبي الذي يأمرني بطاعة جدتي أو أرى جدتي التي تحذرني من عنادي. وتظهر في البيت الدمية من حين لآخرَ ثم تختفي بغتةً، وفي كُلّ مرة يتضخم حجمها، بينما ما زال هاتف ريم مغلقًا قد انقطعت عن الذهاب إلى الكلية ورفضت التحدث إلى أيٍّ من صديقاتها.

وبعد أيامٍ كانت تتصل بي. كانت محبطة يائسة وقالت برجاء:

– افعل أي شيء أرجوك. سيزوجونني بابن عمي الذي لا أُحِبّه. افعلها لو كنت تحبني حقًّا. افعل أي شيء، استعِن بسحر جدتك حتى، لو أن هذا يفلح، لكن لا تتركني لهذا الشقاء.

وتغلـق الهاتـف دون أن تنتظـر ردي. وأتخيلهـا في ثـوب الزفـاف بجـوار ذلـك الفتـى المعقـد. ابـن عمهـا الـذي أكرهـه أنـا الآخـر لأنـه كان يومًـا يلاحقهـا. تهلكنـي الغـيرة فأفكـر في قتلـه ثـم الهـرب بهـا. لكـن هـل يفلـح الأمـر؟ ألـن تتعقبنـا الشرطـة، وإلى أيـن يمكننـي أن أذهـب بهـا. علـيَّ أن أفكـر في حـلٍّ آخـر. لكـن عقـلي يفشـل في الوصـول لأيِّ حـلٍّ. ثـم أشـعر بالإنهـاك بغتـة ويـأتي النـوم.

وككل مـرة يـأتي النـوم بغتـة، تكـون هنـاك في أحلامـي جـدتي بانتظـاري كأنـما هـي مـن يبعـث بالنـوم لي لتحدثنـي. كانـت ترمقنـي بتشـف وأرمقهـا بخـواء قبـل أن تتحـدث:

- يمكنـك الحصـول على خطيبتـك قبـل أن تكـون لغـيرك. يمكننـي المساعدة.

لا أجيبهـا ولا أرغـب في مشـاركتها تلـك اللعبـة الجديـدة التـي تريـد القيـام بهـا. لكنهـا تقـترب منـي وتحيـط وجهـي بأناملهـا الضامـرة وتهمـس في أذني:

- في اللفافات تجد الحل. فتش عنه.

وتختفـي بغتـة وأفيـق. أتذكـر مـا قالتـه وأشـعر باستسـلام لا حـد لـه. لقـد قاومـت طويـلًا، وخضـت مـع نفسي ومـع جـدتي عـشرات المعـارك كـي لا أطاوعهـا لكننـي في كل مـرة أخـسر. تلاحقنـي الهزائـم طـوال الوقـت ولا تمـل جـدتي أو شـيطانيها مـن افتعـال المزيـد مـن الخسـائر لي.

لقـد وصلـت للنهايـة وحـان وقـت الاستسـلام. لـو خسرتُ ريـم

هـذه المـرة فقـد خسـرت كل شيء، لـن أحتمـل أبـدًا الخـواء الـذي سـتتركه في نفسـي برحيلهـا للأبـد عنـي ولـن تسـتقيم الحيـاة ثانيـة. ليكـن هـذا قـدري ولأرضـخ لـه طالمـا سـيبعد الأحـزان عـن نفسـي وطالمـا يمكنـه أن يأتينـي بحبيبتـي.

أتجـه لغرفـة جـدتي. كانـت مضـاءة مفتوحـة كأنـما هـي بانتظـاري. اللفافـات والمخطوطـات عـلى البسـاط الصـوفي مفضوضـة بانتظـار أن أقرأهـا. أجلـس في هـدوءٍ وللمـرة الثانيـة أطالعهـا ثانيـة.

تنجـلي عـشرات العـوالم لعينـي. أرى آفاقًـا أخـرى مـن المجهـول وأكتشـف قـوى مهولـة بـين يـدي لا أتصورهـا. أدرك مـا يمكننـي القيـام بتلـك المخطوطـات الرهيبـة لـو شـئت وأشـعر بسـكينة في نفسـي لا حـد لهـا.

أعثـر عـلى ضالتـي في مخطوطـة مـا. كانـت طلسـمًا لتقريـب الحبيـب والظفـر بـه. أحفظهـا عـن ظهـر قلـب، وأجلـب الأغـراض اللازمـة للقيـام بهـا وفي منتصـف الليـل والقمـر بـدر مكتمـل أنفذهـا.

يتصـل بي حمـاي ليسـألني إن كنـت مـا زلـت غاضبًـا منـه. وتلتقـط زوجتـه الهاتـف منـه لتخـبرني أنهـا تدعـوني للغـذاء. أحـدِّث ريـم فتصـرخ في فـرح أنهـا لا تصـدق مـا جـرى. لقـد طـرد والداهـا ابـن عمهـا وأخبراهـا أن زواجهـا بي سـيتم كـما خططـت مـن قبـل. تسـألني مـا الـذي فعلتـه فأجيبهـا بهـدوءٍ:

- قمت بما طالبتني به.

أذهـب لبيتهـا وأقـرر الـزواج السريـع. لا أدري كـم يسـتمر تأثـير

تعويذتي عليها وكم يمتد مفعولها. أذهب إلى البنك لتسلم ميراثي من جدتي. كان كثيرًا للغاية. كانت ملايين كثيرة لا تُصدَّق. أشتري أثاثًا حديثًا للبيت كله دون أن أقرب حجرة جدتي. وبعد شهر كانت في بيتي.

أنهل من السعادة وأعبها في نفسي عَبًّا وأنسى حجرة جدتي وعهدي معها ومخطوطاتها المثيرة. لكن ريم تحدثني عن غرابة أطواري.

تحدثني عن كلماتي المبهمة في جوف الليل وأنا نائم بجوارها. تخبرني بأنها لا تجدني أحيانًا على الفراش بجوارها وحين تفتش عني تجدني قابعًا بحجرة جدتي أطالع كتبًا صفراء قديمة ومخطوطات بالية متهرئة.

تسألني في دهشة: لماذا أبدو غريبًا حينها، ولماذا أطالبها في كل مرة بأن تلزم حجرتها حتى أعود لها.

وتبدي ذهولها من تعاملي معها في اليوم التالي كأن شيئًا لم يكن.

تخبرني وأنا لا أصدق أنني أقوم بكل تلك الأمور التي لا أذكرها. لكنني لا أبالي كثيرًا. لا أدري لماذا لم أهتم حينها بما تذكره. فقط كنت أحتضنها وأحاول طمأنتها أن كل شيء على ما يرام دون أن أفكر في ما يحدث لي.

هل كان عقلي الباطن هو ما يدفعني لفعل كل تلك الأمور.

هل لامست أعماقي القوة الهائلة التي أدركتها في جوف تلك المخطوطات فاشتهتها وراحت تدفعني رغمًا عني لتعلمها والحصول عليها.

وعدت يومًا من الخارج لأجد ريم قابعةً في الدخان الضبابي الكثيف في حجرة جدتي. أرمقها بحيرة وهي تجلس كما كانت جدتي تجلس أمام بلورتها القديمة فأشعر أن حدثًا سيئًا قد وقع.

أسألها بخوفٍ:

- ما هذا الذي تقومين به؟

وتجيبني بهدوءٍ:

- ألا تدرك مَن أكون أيها الفتى؟

لكنني أدرك من تكون، وأنا أتمنى أن أكون مخطئًا ولا أصدق. وأندفع نحوها وأنا أصرخ بيأس:

- كلا ليس ريم. ليس ريم..

لكن قوى رهيبة أجلها راحت تقيدني بغتة وتجمدني مكاني. وتقول جدتي مستعينة بحنجرة ريم وصوتها الذي أعشقه:

- لقد عدت يا شريف. ظننت هذا يسعدك. يا لك من عاق حقًّا!

- ليس ريم أيتها الملعونة.. خذي جسدي نفسه لكن ليس ريم!

وتضحك وهي تجيبني:

- أعلم أنك تحبها. ولهذا أعدك ألا أمسها بسوء، بل وسأدعها تستعيد جسدها من حين لآخر كي تلقاها. سوف أغادر جسدها كلما احتجت لها.. هل هذا يرضيك؟

بالطبع لا يرضيني إلا أن تعود زوجتي وحبيبتي لي كاملة:

لماذا اخترت جسدها بالذات لتسكنيه بروحك الدنسة، بل وكيف أمكنك الوصول إليه. وكأنما تقرأ أفكاري العاجزة التي تنهشني تجيبني:

- لقد ساعدتني طوال الوقت. لقد فعلت كل جهدك لتعيد جدتك الحبيبة ثانية. كنت طفلًا بارًا هذه المرة يا عزيزي.

وأتذكر تصرفاتي الغريبة التي كانت ريم تخبرني بها!

يا للعنة!

إذا لم يكن عقلي الباطن هو ما يدفعني لمطالعة مخطوطاتها في جوف الليل. لم تكن نفسي تشتهي قوة السحر كما تخيلت. لقد كانت شياطين جدتي هي ما يدفعني لاستعادتها.

والآن عادت لتزيد آلامي وقد استحوذت على جسد حبيبتي.

يتملكني ككل مرة اليأس وأنا ما زلت مقيدًا في مكاني بقواها الخفية، فأنخرط في البكاء وتظلم الدنيا في عيني. وتقول ريم أو جدتي لي:

- أرى أنك بحاجة لأن تنعم ببعض الراحة، سأدعك لتعود لحجرتك.

وعلى باب الحجرة كان إيزار كعهده منتصبًا. لم أفكر أبدًا متى عاد وما الذي دعاه للعودة. قادني نحو حجرتي فتبعته في صمت.

وعلى الفراش البارد رقدت، بعد أن أغلقت حجرتي بالمفتاح وكأنني أخشى ريم كما كنت أخشى جدتي.

أعلم أنني لن أقدر على جدتي كما أعلم أنني لن أخضع لسحرها وسلطانها. عليَّ أن أحارب الكون كله لو تطلب الأمر لأستعيد حبيبتي ثانية.

عليَّ أن أجد وسيلة ما لترحل روح جدتي عن جسدها.

عليَّ أن أصحح جنايتي التي اقترفتها.

لكن هل يمكنني القيام بكل هذا؟

ليتني أعلم.

❋ ❋ ❋

تمَّت

حكايات شتوية

عن أسرار المرايا المريعة وتوأمي الذي ظهر في حياتي بغتة وذلك الحب الغريب لريم والأحجبة الشيطانية التي ورثتها وذلك الرفيق الغريب المخيف ايزار ثم ذلك القط الأسود وسره العجيب وأخيرا حكايتي مع جدتي وأغراضها اللعينة.. إنها حكاياتي الشتوية التي أتلوها للمرة الأولى. فهل أنت مستعد؟

غلاف : أسامة علام

6 71860 01362 4